مـــــــالِك

(مجموعة قصصية)

جمال سليمان

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر

اسم العمل: مـــالك

الكاتب: جمال سليمان

نوع العمل: مجموعة قصصية

رقم الإيداع: 23503/2016

الترقيم الدولي:

ISBN 978-977-85325-7- 9

تصميم الغلاف/ محمد علي

الناشر / دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون / 00201065534541

00201208868826 - 00201150999344

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر

إهداء ..

إلى حب حياتي، التي لم أجدها في مداري وهبطت عليّ من كونٍ آخر .

إلى التي تحمّلتني كثيرًا، وعانت، لكنها لم تتخلَّ عني ..

إلى صديقتي وأمي؛

إلى والدي العظيم، وإخوتي المحبين.

إليك أنت عزيزي القارئ، فلولاك ما كتبت.

جمال

على فراش الحصبة

"في هذه الأزقة و الشوارع الضيقة، كنتُ أجدُ نفسي صغيرًا لا يكبر، و لطالما كنتُ أخافُ ألّا أكبُر يومًا كما يفعل الآخرون، وحينها سأصبح قزمًا وسيتطاول عليّ الصبية ولن أستطيع رد الصّاع لهم.

سنين طويلة قضيتها في تلك الدّروب وخرجت إلى شوارع أكثر ضيقًا من جُحر الأرنب ولكنّي كنت أجدها براحًا لا يكتنز، و كانت كافية لأختبئ فيها عن أعين رفقائي في لعبة " الغُمّيضة" أو "عسكر وحرامية" كما كنّا نسميها. سنين طويلة ركضت و ركضنا خلف عربات المياه وهي تسقي تراب الشّارع الذي لم يكن لتقيده قطيرات أو حتّى شلال مياه، فسرعان ما تصهره الشمس ويعود لتستفزه الريح فيسبح في رؤوسنا وأعناقنا وتتكدّس به الأعين. لكنّنا لا نُبالي ونستمر في اللّعب.

سنين طويلة و أنا أرى كل البنات التي في المدرسة المجاورة لمدرستي عرائس خشب ودُمى لا يمكنني أن أتكلّم معها.

كانت تقف بعيدًا وحدها وكنت أراقبها دائمًا. تتمرّد على الجماعات النّسائيّة الصّغيرة، ولا تنصاع لهم. تأبى إلّا أن تسير نحو البيت بمفردها في إستخفاف من الجميع، و إمتعاض من أحاديثهن السّخيفة.

كبر كلانا دون معرفة بعضنا. إلا أنّنا نعرف كل شيء عنّا دون سؤال أو استقصاء أو حتّى ملاحظة احتجنا لندوّنها في دفتر كي نتذكّر كيف كنّا. كلّ شيء كان واضحًا تمامًا وشفافًا كالمياه الّتي لا يصل إليها اليخن أو تصيبها العكارة.

حين أصابتني الحُمّى أذكر أنّني كنتُ صغيرًا، وكعادتي لم أشعر أنّي كبرت إلّا حين رأيتها تدخل متّشحةً بالحجاب تزورني و أنا في نصف وعيي. أسمع

أحاديثًا وأصواتًا بعيدة وقريبة متداخلة بدون تمييز. أميز فقط صوتها وهي تتحدث لأمّي وتضحك في أدب وحياءٍ خلّاب يستثير المشاعر ويأسر القلب. لم أصدّق نفسي حين رأيتها تختلس النّظر إليّ من بعيد وترفض أن تدخل إلى مرقدي وكنت أظن أنها تهيؤات الحمّى.

كنت أنام على فرش خشن كالشّوك أو هذا ما كنت أشعره بفعل "الحصبة" كما قال الطّبيب وعلى الأرض في مساحة كبيرة بعيدًا عن كلّ شيء إلا من شيء واحد .. مرضي.

حاولتُ جاهدًا أن أرفع رأسي لأراها، ولَكَم خفق قلبي حين رأيت وجهها بعينين بنصف النّعاس ونصف اليقظة.

كانت جميلة للحدّ الذي جعلني أُشفى، وكأنّ قنديلًا أضاء عتمتي فجأة. أحسستُ بطاقةٍ لا معقولة تحقن قلبي وأعضائي وشعرتُ بخفّةٍ في جسدي. حاولت النّهوض إلّا أنّ رأسي وكأنّه مقيّد إلى الأرض وألم شديد بمقدمته ومؤخرته.

كل شيء بي يريد النّهوض ليراها لكنّني محتجز ومقيّد رغمًا عنّي.. حاولتُ أنْ أُصيح و أنادي على أمّي كي تلتفت هي وأراها ثانية لكن صوتي خذلني ولم يخرج.

تعرّقتُ كثيرًا وشعرت ببرودة تسري في أوردتي. وكأنّ الدم محمّل بفائض من الأوكسجين. تسارَعت نبضاتي بشكل غير مسبوق وكأنّني تعرّضت لتيّار كهربائي كفيل لأنْ يصعق فرس.

فتحتُ عينيّ فجأة .. واختفى كل شيء.

***

بِدُون

- سأرتدي الجنون قليلًا وأخبرها.
- ستكون أحمقًا لو فعلتَ ذلك، وهي لا تُحبّ الحُمْق.
- لا أهتم .. سأخبرها على أيّة حال ، لابد أن تعرف أنّني "بدون".
- ستهرب عند أوّل فرصة إن عرفت ذلك. لن يشفع لك حبّها، وستُلقي كل ذلك وراء ظهرها وترحل.

ثم لماذا تريد أن تخبرها؟ ألا تعرف من هي؟؟

أيرضي أهلُها أن يكون زوج ابنتهم "بدون"؟

إن عرفوا ذلك فثق تمامًا أنّني لن أجد لك جثة تصلح للدّفن.

نحن في مجتمع لا يرحم يا صديقي. والذّكي هو من يحفر بئرًا عميقةً ليلقي فيها أسراره الخطيرة. وكلما زاد عمق البئر كلما كان سرّك بمأمن. وهذا السّر كفيل بأن يقتلك فكن حريصًا على ألا يشمّ رائحته أحد.

إزدرد لسانه بصعوبة وهو يتطلّع عبر النّافذة.

ماذا لو أنّ كلّ ما قاله صحيح؟

هل هو على استعداد أن يضع نفسه في هذا الموقف؟

أن يُعرّض حياته للخطر؟

هل يستحق حبّها كل هذا العناء ..!!

لم يُطل التفكير. أمسك هاتفه وأخذ يضرب رقمًا حفظه عن ظهر قلب .. وصديقه ينظر إليه في ذهول.

سيلا

"إنّها لا تتكلم .

تظلُّ صامتة طوال اليوم و لا تتجاذب أطراف الحديث مع أيٍ منّا. ولا نعرف شيئًا يثير إهتمامها كي نفعله.

تكلّمنا أمامها في كلّ شيء علّنا نجد شيئًا يجذبها للحديث، إلا إنّها تبقى صامتة كحجرٍ متحرك يقوم ليحضر دفاتر الفواتير ثم يجلس ليضع رأسه أمام الشّاشة ولا يرفعها حتّى يُرجع الدّفاتر في رفوفها مرَّة أخرى.

على ذلك الحال إلى أن يأتي موعد انتهاء الدّوام.

وإن تواجهت عينانا عند باب الخروج تبتسم إبتسامة صفراء، ثمّ تخرج مسرعة دون كلمة واحدة لتستقلّ نفس الباص الذي جاءت فيه.

هكذا هي حزينة دائمًا وصامتة طوال الوقت. في أحد الأيام، تبعتُها إلى داخل المركز التّجاري الذي نتسوق منه، فوجدتها تنزوي إلى ركن لا يراها فيه أحد وتبكي. تظلّ تبكي وتناغي حزنها بشهقات أسمعها بوضوح رغم الحائط الذي أتوارى خلفه. سحَّت دموعها لمدة تزيد عن الخمس دقائق حتّى ظننتُ أنّها أفرغت كل ما في جسدها من ماء.

أنا لم أرَ دموعها، ولكنّي رأيتُ آثار الكحل في المنديل الملقى خارج السّلة القريبة منها بعد أن رحلت من مكانها.

وعندما عادت، إرتدت وجهًا خشبيًا لم يبدُ منه أيّ أثر للدّموع التي ذرفتها هناك. تلك الغريبة تثير فضولي كثيرًا، شغلني ذلك الغموض الذي يحيط بها كقوس قزح. الحقيقة أنّني أتعاطف معها وأشعر أنّ مقبرةً ممتلئةً عن آخرها بالموتى تغوص في أعماقها، وبداخلها دفنت روحها وضحكتها قبل أن تدفن النّاس. قلبها يحمل بكاء السنين، ويكابر. الحزن يتلألأ في عينيها كنجمة مسحورة تتجول حولك وتخاف أن تمسكها فتحرقك. "لكنّي لست خائفًا".

***

"توقفت أمام الموقد، ثم نظرت إلى اللّوحة المعلّقة فوقه.

هدوءٌ وسكينةٌ سقيا روحها. الصّمت يلفُّ الغرفةَ ويحجب عنها بدارةَ الأحاديث إلا من صوت بندول السّاعة التي إستقرت على الجدار الموازي، يستنفره ويخرجه من قوقعته.

أغلقت كل النّوافذ حتى لا يتسلّل البرد إلى أطرافها كما تسلّل صقيع سيبريا إلى قلبها وبقيت نافذة واحدة يُطلّ منها الحنين بقوة مُدجَّجًا، ونصله الحاد يغوص في عمق قلبها حتّى آخر رمق.

جلسَت قرب الموقد على كرسيها الهزّاز تطلب شيئًا من الدّفء الذي يُصِرُّ على الهروب.

أحسّت بجرعة زائدة من الوحشة فقامت إلى المطبخ تُعدّ شيئًا دافئًا.

تناولت قدحًا أفرغت فيه كيسًا من الشّاي، ثم تركت الماء المغلي ينساب عليه بسلاسة محدثًا صوتًا جعلها تطرب للحظات.

تركته ولم تقلّبه ثم عادت إلى مكانها وأشعلت ملفوفًا من التبغ جعلها تشعر بنشوة. نسيت أن تحضر السّكر.

عاودت النّظر إلى اللّوحة مرّة أخرى ..

وتذكرت ....."

***

لا جدوى من الهروب.

الآن تشعر أنّها وحيدة أكثر من أي وقتٍ مضى.

ربما بدأت تتجاوز الماضي قليلًا ، لكنّ الشّعور بالوحدة هذه المرّة لا ينتمي إلى الماضي. ربما ليس لديها الرّغبة في حبّ جديد الآن ..

لكنّها بحاجة إلى شخص ما بجوارها، ربما صديق جيد يفي بالأمر.

كانت مشاعرها متناقضة.
لا تكون في حالة مزاجيّة رائعة إلا عندما تستمع إلى موسيقى حزينة.
تكبسُ الزر .. و تستمع إلى موسيقى الكمان.
نوستالجيا ..

***

إنّهم ير اقبونك يا "سيلا" ..
يترصّدون خطو اتك ويتطلّعون إليك بعيون شبقة تُطلّ منها نظرة الحرمان. ومع كلّ دبّة قدم تستحوذ على عقولهم شياطين الكون فلا تمنحينهم شيئًا يأخذونه عليكِ.
"إنّني أكتفي بنفسي ولا أنظر إلى أحد. فلمَ لا يتركوني وشأني؟."
"لأنّهم لن يدعوك وشأنكِ. لا أظن أنّ هؤلاء يريدون بك خيرًا. لكنّي أجد فيه شيئًا مختلفًا عن الباقين. ألا تشاركينني الرأي؟"
"ممم .. لا أدري .. لكنّي لا أهتم."
"حسنًا .. أنا أعرفك جيدًا. وأعرف أنكِ تلاحظين ذلك أكثر من ملاحظتك لأحمر الشّفاه الذي ساح ليصل إلى ذقنكِ و أنتِ لا تشعرين."
"حقًا ..!!"
إنتبهت لما قالته "سيرين" فأخرجت المرآة غير أنّ الأخيرة بادرتها بابتسامة تدلّ على أنّها قد ظفرت بها.
هي حقًا تشعر بالوحدة. لكنّها تخاف أن يغدر بها رجل آخر.
لن تتحمّل مزيدًا من الإنكسارات.
وهو يحبّها حدّ الجنون.
وقرّر أن يخوض غماره حتّى النّهاية.

***

الطريد

"كنتُ أراقب المياه و أنا على الشّاطئ. أترقب ظهور سفينة قادمة من جهة الغرب في إتجاه الجنوب. أنتظر تلك العلامة و يساورني الشّك فيما إن كانت ثمّة سفن تمرّ من هنا أم لا.

صعدتُ إلى قمّة أعلى تلة في الشّاطئ، ثم نظرت إلى الغرب وإلى الشّمال فما رأيتُ شيئًا.

يبدو لي أن هذا النّهار سيمرّ أيضًا دون أن يرى سفينة واحدة تمرّ من هنا.

ثلاثة أيّام ولم تمرّ سفينة..

ما هذا ..؟؟

لماذا صدّقت رسالة مجهولة ألقى بها الموج إلى هنا؟؟

أنا حتّى لا أعرف مَن أرسلها وإلى مَن..

كان فحواها بسيطًا ، ولكنّه على بساطته مُبهم:

"إنتظر اليوم.

السّفينة ستمرّ من الغرب إلى الجنوب، سترفع العلم الأحمر، وحينها إقفز إلى الماء.

ستجد الغطاس ينزل والقارب يطفو

. سر باتّجاه القارب واصعد وعُد إلى حيث تنتمي".

لماذا صدّقتُها؟؟

لأنّني غريب ..

فاقد الذّاكرة أتشبثُ بأمل..

لحظات، ويسمع صوت بوق فيصعد مسرعًا فيجد سفينة عملاقة قادمة من جهة الغرب بإتّجاه الجنوب تمخر العباب وتصنع أمواجًا عملاقة.

ركض إلى الشّاطئ في انتظارها وقلبه يخفق كالطّير..

هل سترفع العلم الأحمر؟

هل سيعطونه الإشارة ؟

هل سيلقون الغاطس ... وهل سيقذفون إليه القارب؟؟

بدا متوترًا جدًا حين رأى السّفينة تقترب ..

وتقترب ...

***

(الحادثة)

في تمام الخامسة استقلّوا سيَارتهم قاصدين أحد المولات التّجارية.

"راضية" تنقصها بعض الأشياء الضروريّة قبل العرس، و"عليّ" حضر منذ الظهيرة كي يخرجوا لشراء الحاجيات وتمضية بعض الوقت خارج البيت.

كان لابد أن ينتظر خروج "محمود" من الجامعة كي يصطحبهم، وأصرّت كل من "سلوى" و"هدير" على الإنضمام للجمْع الميمون.

"سلوى" حامل في الشّهر الثّالث ومعها الآن طفل رائع اسمه "نور" لم يتجاوز السّنتين، اصطحبته معها في الرّحلة وأخذت هديرُ أيضًا ابنتَها "رهف" ذات السّبعة أشهر ثم انطلقوا جميعًا.

الرّياح شديدة وعواصف ترابيّة تُقدّم اللّيل على النّهار، ولكنّهم أصرّوا على الخروج في فرح.

بعد أيّام فرح "علي" و"راضية".

"راضية" اسم على مسمى. لم تطلب من خطيبها الكثير.

لكنّه كان كريمًا للحد الذي أذهلها.

قرّر أن يأخذها في رحلة نيليّة وحجز غرفة لقضاء ليلة العرس في الفندق الكبير الذي يطلّ على جزيرة "قرامان" في منتصف النّيل.

لم يخبرها بالمفاجأة الّتي أعدّها لها.

قاد السّيارة مسرعًا وهو يعدّ الدّقائق كي يمنح حبيبته بعض اللّحظات السّعيدة ويفاجأها ..

يريد أن يعبّر لها عن حبّه بطريقته.

ضغط دوّاسة البنزين أكثر، واشتدت الرّياح ..

أخرج الهاتف يريد أن يؤكد موعده للحجز فاختلت عجلة القيادة من يده ..

انحرفت منه السّيارة عن الطريق لتسقط في مصرف المياه.

حاولوا الخروج بسرعة قبل أن تغمرهم المياه لكنّهم لم يعرفوا كيف يفتحوا أبواب السيارة التي كانت محكمة الغلق. و مع زيادة ضغط المياه صار من المستحيل أن تفتح.

بدأت المياه تغمرهم و هم يصرخون لكن أحدًا لم يسمعهم.

الطّقس مخيف والرياح شديدة والعاصفة التّرابية تطمس الرؤية.

لم يراهم أحد، وما هي إلا دقائق حتّى فارقوا الحياة.

لم ينجُ منهم سوى "علي" الذي استطاع أن يفتح بابه بسرعة قبل أن يُدركه الغرق.

لم يصدق ما حدث ..

في لحظةٍ واحدة فقد كل شيء ..

***

السّجن

في لحظة مرور الضّوء من ثقب الباب للمرّة الأولى هذا الصّباح كان هو اليوم الخامس والعشرون بعد الثمانمائة بعد الألف. أي بعد مرور خمسة أعوام على النّفي.

أدار مفتاحٌ صدئٌ الثقبَ الذي عُلّقت على مقبض بابه كل الأمنيات الّتي لا تأتي. غطاء الثّقب من الخارج، التحم صدؤه بالمِدوَر الدّاخلي وأصبح جزءًا منه.

في المقبض النّحاسي الّذي يدور فقط في إتجاهٍ واحد ولاتّجاهٍ واحد، مرروا المفتاح بخشونة لم أعتدها منهم قبل اليوم ثم فتحوا الباب لي.

إجتزتُ الباب متجهًا نحو السّياج، ثمّ إلى خارج حدود السّجن.

و اتّسعت الرؤية.. باغتني ضوء النّهار مُهيبًا يلفح وجهي بهواءٍ طازجٍ وكريه. صبَّ في عيني تلك البرودة التي لم أشتاقها أبدًا..

وسكب قرص الشّمس في مآقيَّ الرّاكدة منذ فجر الموت الأوّل في تلك الزّنزانة دفئًا ملوثًا بالحقيقة. خفت و جفلت راجعًا للوراء.. دخلت لسجني وسحبتُ الباب خلفي، وقبل أن أغلق .. ألقيت المفتاح في البالوعة.

أنا ابن اللّيل الحالك السّواد الذي يكره الحرّية.. أنا القيد والدُكنة الغاشمة الّتي تُطوّق رقاب البسطاء. سأقبع هنا ..وليستريح العالم المتعفّن.

ليس لي مكانٌ بالخارج .. لا أعرف لي بيتًا ..

لا أعرف زوجةً أوولدًا .. لا أعرف أمًّا أو أبًا.

سأبقى هنا بعيدًا عن الزّحام والضّجيج ..

***

أحمد قلبي

ثلاثةٌ وعشرون عامًا مضت على رحيله..
لا تزال تلك الحلقة الفضيّة الواسعة التي تحايلت وضيّقتها بقطعة قماش صغيرة تطوّق إصبعها الأوسط. لم تكن كافية ..
لأن أصابع يده الضّخمة لا تقارن بحجم أصابعها الصغيرة.
خبّأ وصيته في كتابه الذي كان يحب أن يقرأ فيه ولا ينتهي منه إلا ليرجع إليه.
كان يذكّرها دائمًا بأنّ وصيته، ستجدُها يومًا في درج المكتب وكانت تقول له:
"إن كنت ستقول ذلك مرةً أخرى، فأنا أيضًا أريد أن أكتب وصيتي لك."
فيقول: "لن تحتاجي لذلك .. لن تموتي قبلي. "
ثلاثةٌ وعشرون عامًا ولا زالت تذكره كلما تحدّثت مع صديقة عن فسحة يوم الجمعة أو عن زيارة الثلاثاء إلى دار التّحفيظ أو عن أكلاتها المعروفة بقلّة جودتها بين معارفها. وكيف كان يتلذّذ بها، يشكرها ويقبّل يدها.
كل عام .. كل شهر.. بل كل يوم، تذكره فتحمّل عيناها بالدّموع وترفض أن يغادر رحمها الحنين. دموعها عصيّة ..
وتختبئ وراء تلك العينين الشّرستين أطنان من الحيرة ..
وجبال من الضعف ... والحنان.
ثلاثةٌ وعشرون عامًا ولا يملأ عينها رجل .. إلا أحمد ..
ثلاثةٌ وعشرون عامًا وما زالت تحبّه ..

***

ضحيّة حرب

"إنّ الحرب بداخلنا قبل أن تكون بالخارج.

والشّعور بالعجز يأتي من الدّاخل قبل أن يبتروا قدمك ويديك.
هذه القذيفة قبل أن تصيبك أصابتني وطمست عيني وشجت رأسي وقدحت مخّي ونخاعي وغرست نصل اليأس إلى آخره في عمقِ في قلبي.
قطّعت أوردتي وعروقي و فدّرت الودجين. مزّقت ذراعيّ وشلّت حركتي معك.
ما معنى أنّي لن أراك تمشي مجددًا .. !!
أن أمتنع عن التحديق في يديك وهي تطعم الحمام الذي ربيناه سويًا.
لن تصعد مجددًا إلى السّطح وتصيح بي:
"لقد عطش الحمام يا فاطمة. الحمام لا يتحمل العطش والحر.. سينفق إن لم تحضري الماء حالًا"...
أنا أيضًا لا أتحمّل الحرّوالآن أشعر بالعطش ..
أنا أيضًا أحتضرُ مثل فرد الحمام الذي يضمر عليه الخن .. سأقضي قريبًا إن لم تنطق و يعود لسانك ليملأ حياتي صخبًا كما كان".
إيهٍ يا "فاطمة".. قتلتنا الأرض والنّاس وسقطنا في الوحل و داستنا الأقدام ورؤوسنا لا تقوى على النّهوض. ماذ سيفيد الآن يا "فاطمة"؟.
يموت الحمام أو لا يموت لم يعد مُهمًا .. إنتهينا يا فاطمة منذ زمن.
قتلنا الظلم والجشع قبل أن تقتلنا الحرب يا فاطمة.
أكلوا لحمنا وألقوا بالعظم لكلابهم ولن نعود أحياء.
نحن معذّبون ومكبّلون في قيودنا يا ابنة العمّ ولا نملك أن نفكّ القيد ونهرب هكذا سنظلُّ إلى أن نموت ..

لم يبقَ أحد

"أمسكت ذراعي ونظرت إليّ بعينين يملؤهما حزنٌ وألم، يرويان الخوف الذي يزلزلها الآن. لم يبق لها أحدٌ غيري..
تشبثت بأساور قميصي وكأنّها تستنجد وتستغيث بها. لا تريدني أن أتركها.
ربتُّ على يديها وأرسلت نظرةً حانيةً طمأنتها ثم أشرتُ لها أنّي سأبقى.
فقط سأصعد إلى غرفتي كي أنال قسطًا من الرّاحة ثم أنزل إليكِ حبيبتي ..
لا تخافي .. لن أغادر.
إبتسمت في وهن ثم أرخت يديها واستدارت لتجلس على أريكتها في عجز، و أنا أرقُبُها و أتابع حركاتها البطيئة في سكون.
مرّ الوقت بطيئًا و أنا أصعد الدَرَج إلى الطابق الثّاني، ثم وقفت أمام الباب.
أدخلت المفتاح في الثّقب وأدرت المقبض و أنا أسمع صريرًا يشبه تأوّه عجوز متكومّة داس أحدهم عليها في وسط سوق مكتظّ بالناس ودون أن يشعر بها وكأنّه يريد أن يقول لي .. لا تدخل.
تراجعت وأغلقت الباب بهمّة ثم عدّتُ أدراجي وهي تر اقب خطو اتي الهابطة المتأنّية بعينيها الدّامعتين في شغف.
نزلت إلى المضافة و ارتميت إلى جوارها على الأريكة دون أن أغير ملابسي.
أسندت رأسي على فخذها وهي تمسح على وجهي و رأسي و تتمتم بتعاويذ و أدعية و تحمحم، فلا أكاد أتبين شيئًا من كلامها حتّى غططتُ في النّوم.
آهٍ يا أمّي .. لقد فعل بك الزّمن ما فعل و أنا بعيد ..
مات أخي الذي كان يرعاكِ وتلطمتِ .. لم أعتقد يومًا أن أختي هي الأخرى ستفارقك إلى الأبد .. أيُّ أسىً وأيُّ عذاب تجرعتهِ.
أنا هنا معك و لن أتركك يومًا واحدًا بعد الآن ..

***

الأستاذة صفاء

أتوق لصباح كان يأتيني بصوتك.
حين تكونين في أوجّ إنشغالك ..
تلقنين الصّغار الدّرس ثم تسمعين طنين الهاتف برسالة تقف على نافذتك ملوّحة من مسافة بعيدة، تحمل أشواقي.
تتركين الطّبشور وتخرجين مسرعة لتلفنتي فتجدين هاتفي خارج النطاق.
حينها تخرج "أووووف" حارّةً حانقةً وممتلئة بغيظٍ شديد.
تعودين أدراجك فتجدين الجميع ينظر إليكِ في دهشة وقد علاهم صمت مريب.
تبدأ حاستك بشم رائحة خديعة ما .. وقبل أن تلتفتي تجدي النّاظر يصرخ في وجهك :

"أكملي حصّتك يا أستاذة صفاااااء"

***

الشّيطان

"أعلن في صمته عن كبرياءٍ غافٍ خلف عينيه التي حوت تلالًا كبيرة من الحزن.

بقي صامتًا يخاف أن يقبل بالحرام فيعضه قلبه بندم سام يفتل في لحظة واحدة عمرًا من الظلام.

يخاف أن يتباطئ فيُفهم سكوته رفضًا وامتناعًا فيضيع منه ثمن لقيمات ينتظرها صغاره الجوعى.

يسقط في خَيّةِ السّؤال والخوف اللذان يجلدانه دون رحمة ..

هل تكون تلك رشوة مقنّعة وسُمٌّ مدسوس في العسل.؟

سال لُعابه على فرحة صغاره حين يدخل عليهم حاملًا شيئًا من البهجة في ثياب جديدة وطعام لم تذقه أفواههم منذ مدّة.

أغمض عينيه يكابد حيرته ..

يريد أن يمدَّ ذراعه فيلتقط الظّرف وفي سرّه يدعو الله أن تُقطع يده قبل أن تصل...

يا للموت الذي يشرع فاتحًا فكّيه بسطوةٍ غاشمة ..

يا للفقر الذي جعله يبكي حسرةً وألم...

يتمتم في سرّه بدعوات والشّيطان أمامه يكاد ينهار، لكنّه يتمسّك ويقوم بوخزةٍ أخرى .. يعمّق نصله في صدر كبريائه عسى أن تكون القاضية..

أخرج الرجل المال من الظّرف فلاحت لمعةُ النقود من فئة المائة دولار الجديدة.

لها حدّ يحزّ رقاب البشر كما النّعاج.

يسبيهم و يلعن شرفهم بنمقٍ وإغراءٍ كساقطة تهوى الغو اية ..

إستمدّ من عهره قوّة لا منطق لها.

ومن ابتسامته الدّاعرة ثقة بأنَّ الرّجل لن يرفض كل تلك الآلاف ليطبع خِتمًا على ورقة..

الرجل يصرخ من أعماقه صرخةً يسمعها الله، فيرسل في عجالة قدحًا من الماء ليسقط أمامهم.

إمرأة عجوز كانت تقف قبالتهم تهمّ بتناول الماء فسقط الكأس و تهشّم.

تطايرت أشلاءه ورذاذه فوصلت إلى وجه الشّيطان ..

إنتفض و اقفًا في غضب وهو يلوّح بيده للعجوز ويزأر في غضب أوقظ صاحبنا من غيبوبته و فرّ مرتعدًا"..

***

الماكرة

قالت وهي تقلّب الورق بين يديها دون أن تلتفت:

أخبرتني أنّه كثير الملل لدرجة أنه لا يرتدي قميصًا أكثر من مرةٍ واحدة، ثم يضعه في خزانة ملابسه ويمر العام والعامين ولا يرتديه. ثم يكتشف بالصدفة أنه لا يمتلكُ قميصًا زهريًّا فيضطر آسفًا لأن يرتديه متأفّفًا. كيف لرجل مثل هذا أن يعشق امرأة واحدة و يخلص لها ؟

قال بتحدٍّ: "هل هي قلقة؟"

رفعت عيناها من على الورق وكأنّها انتبهت لوجوده فجأة ثم قالت بلهجةٍ حاسمة: "لا .. لا أظنّها كذلك"

رمقها بنظرة يملؤها البرود وهو يطرح ورقته الأخيرة أرضًا ويزفر في ضيقٍ مصطنع: "السّؤال لا يكون هكذا .. بل قولي ما الذي لديها لتجعله هائمًا بها كل هذه المدّة. وكلّما غدت أو راحت راقبها بتمحّص. حتّى إذا ما التفتت إليه لتحدثه فَغَرفَاهُ كالأبله وكأنّه يراها للمرة الأولى.

هذه السّيدة لسيت سهلة على الإطلاق. إنّها شديدة الذّكاء وشديدة الحذر."

"وشديدة الحُسن أيضًا.. "

قالت وهي ترسل غمزة بعينها و تضحك.

شرد قليلًا فأحسّت وكأنّها قد فضحت أمرًا كان يدفنه بين الورق.

مد يده في توتر ليسحب ورقة جديدة فأسقط الكأس في حجرها فجأة..

لكنّها واصلت الضّحك وكأن شيئًا لم يحدث.

ما يهمها الآن أنّها قبضت على السّر.

***

مالِك

"زاهدًا فيما سيأتي .. ناسيًا ما قد مضى"

جبران خليل جبران

البداية ..

"مالك" ..

شاب طموح تمنى أن يمتلك الدنيا بأسرها، أن يصبح أثرى الأثرياء، حتّى أنّه كان يبالغ كثيرًا فى حلمه بالثّراء.

كان يحلم بأن يمتلك نصف ما على الأرض من خيرات أو يزيد، ولكنّ نفسه كانت تمتلىء بحبّ الخير، وكان حلمه أن تُحازله كل تلك الثّروة ليسخرها فى خدمة المحتاجين ..

كان يحلم بعالم بلا فقراء..

ياله من حلم جميل.

"مالك" ..

يكبر عامًا بعد عام، وحلمه يكبر معه ..

وذلك الحلم لا يفارق خياله، يمني نفسه به، ويراه قريبًا جدًا،

"يوما ما ستمطر السّماء له ذهبًا ، ليس لأحد غيره"

كان يحدث نفسه سرًا، وامتلأت حواسه بحلمه ..

يستحوذ على تفكيره باضطراد يومًا بعد يوم.

استمرّ"مالك" خلف حلمه يركض بلا جهد لفترةٍ طويلة حتّى شعر بالملل.

إكتشف أنّ ذلك الحلم ليس سوى مجرد وَهم كبير، وأن السّماء لن تمطر ذهبًا كما تصوّر، لأنها لم تفعل ذلك يومًا ..

بدأ يتناسى حلمه في البداية إلى أن نسيه تمامًا ..

إعتاد حياته ، ثمّ بدأ يشعر بالرّضا بعد أن اقتنع بأنّه لن يجنى من الدّنيا غير ما قُسم له. أخذ شعوره بالرّضا يزداد و أحسّ أنّه كان مخطئًا في مبالغته في أحلامه. فلابدّ أن يبدأ في التّفكير كما يفكّر العقلاء.

كيف يبدأ حياته بما لديه .. غير آبهٍ بما يذهب و يأتى ..

ولكن ذلك لم يكن ليمنعه من الأمنيات الجميلة ..

كان يجتهد فى عمله، فلم يشأ أن يُقتل الطّموح بداخله.

تحوّل بحثه عن المال الى شيء آخر..

شيء أسمى وهو ما أدركه أخيرًا ..

إكتشف أن شيئًا واحدًا فقط يمكنه أن يمنحه ذلك القدر من السّعادة التي يتمنّى .. إنّه "الحبّ" ..

كان يعتقد أنّ الحبّ لا يأتي صدفة كما يدّعي البعض، ولكنّه ثمار عمل وجهد .. والأهم من ذلك كلّه رغبة قويّة.

ظلّ "مالك" ينقّب عن كنزه، يرهقه البحث و يفتر أمله في اللقاء فيهدأ ثم يعوده الأمل من جديد فيعاود البحث بإصرار أكبر..

إلى أن وجد ضالته أخيرًا ..

فتاة جميلة – من أسرة طيبة

رقيقة الملامح ..

عذبة الصوت ..

حسنة الخلق ..

تملّكه حبّها حتى فاض به القلب، وغمرته السّعادة فظنّ أنّه قد امتلك الدنيا. كان يريد أن يأسر تلك المشاعر فلا تغادر صدره أبدًا.

أحسّ بالرّاحة في حبّها، و بالطمأنينة التي سرت في أوصاله حدّ السُّبات.

أحبّها دون تفكير.. وتخطّى كلَّ الحدود.

لم يكُن يفكر في أيّ شيء سوى كيف السبيل لإرضائها ..

الحكاية ..

كانت "عبير" من بدأ بالتّقرب منه.

فلم تكن من عادته الإختلاط بالجنس اللطيف، منذ أن نشأ. وكان لأمه أكبر الأثر في شخصيته، فلم تكُ ترضى بأيّ قدر من الفظاظة. كان الحياء دستورها التربوي الصّارم التي ألجمت به وحيدها حتى لا تزيغ عيناه يمنة أو يسرة، قانون لا حياد عنه مهما عظمت الفتن و اشتدت، وعَلا صوتها في زعيقٍ صارخ. لم يكُن يجرؤ على مخاطبة فتاة دون سبب بيّن يدرأ عنه شبه السّماجة والسّخافة، مهما كان قدرُ جمالها و طغيان فتنتها.

ليس لأنّه ذلك المتلعثم الذي لا يُجيد فنّ الحديث، ولكن لأنّه ذو خلق أكثر من أي شيء آخر. لفتت إنتباهه كثيرًا، لكنّه في كل مرّة تمرّ فيها قُبالة البيت كان

يتحاشى النظر إليها. ولمّا كانت "عبير" من بدأ بالتّقرب .. أحسّ بأن القدر يكافئه على إحترامه وحفظه لعهد أمه.

لم يمرّ وقت طويل حتى إمتلأ قلبه بحبّها ولمّا علم أنّه أُولى تجاربها ازداد تعلُّقًا بها. كان بالرّغم من ذلك يحاول أن يمنع نفسه عن التفكير فيها، في حين أنها كانت تحلم به. لم يملك أن يمنع نفسه عنها، فأطلق لقلبه العنان.

فاض حبّه، وكأّن نهرًا قد حُبس فى إناء ثم سُمح له أن يتدفّق.

الهاتف لا يفارقه أو يفارقها، والحديث بالسّاعات ..

شلال حب منهمر لا يتوقّف، وشعور بالذنب دائمًا ما يخيّم عليهما.

ليس لهما أن يكونا بمثل هذا القرب دون رباط شرعي يباركه.

إتّفقا على الزّواج لأنّه الحلّ الوحيد لاستمرار العلاقة.

بدءا يخطّطان للقائهما الأوّل، وكان همُهما أن يكون فى نطاقٍ شرعىّ. لكن البداية "كذبة". سنقول أننا لا يعرف أحدنا الآخر..

وأن لقاءنا هو أوّل المقدمات حتى لا يكون ثمة حرج يعكّر صفو الأهل.

ظلّا يخططان للمستقبل، ويرسمان حياتهما معًا، فلاحت في الأفق بوادر خلاف. كانت لا تميل إلى البيئة القرويّة التى نشأ فيها، وتنزعج كلّما تحدث عن العودة لقريته الأم ..

بيت أبيه الذي شهد طفولته، وبيت أخواله بعد وفاة أبيه.

حاول أن يقنعها جاهدًا بأنّ أمّه هناك تنتظره أن يأتي ومعه عروسه ليستقرا هناك ..معها ويثلجا صدرها الذي ألهبته حرارة الإنتظار.

يمكنهما العمل هناك وتحقيق كل شيء.

هناك الأرض، والمشروع الكبير الذي حدّثه عنه خاله الذي يحتاجه سندًا و ابنًا لم تلده له زوجته. لكنه فشل ..

حاول بشتى الطّرق، أن يقنعها بذلك، لكن حديثهما كان يقف دائمًا عند هذا الحدّ. في كل مرّة يقف هنا دون جدوى.

بدأت تلك الأمنية تتسرّب منه تدريجيًا حتّى رضخ لها، ورضي بأن يعيشا في المدينة و يذهب هو كل فترة ليزور أمّه وأخواله.

تنازل عن حلمه في المشروع.

عاد الإنسجام بينهما إلى سابق عهده بعد أن رضخ إلى طلباتها. يخططان لكل شيء يخص حياتهما الجديدة.

كيف سيكون المنزل، والأولاد ..؟ وما أسماؤهم .. ؟

ولكن .. كيف ستبقى وحيدة في المنزل عندما يذهب إلى عمله؟ إنتبهت لذلك فبدأ يشعر بانزعاجها. لن تستطيع تحمّل ذلك.

طلبت منه أن يشتري لها البيت المجاور لبيت أبيها والذي كان معروضًا للبيع. في تلك المنطقة الر اقية التي لن يقدر على الشراء فيها مهما حاول أن يدّخر من مال. بدأت ترهقه بطلباتها.

أشياء لا يملك ثمنها، تطلب منه شراءها فيقترض.

تحمله ما لا يطيق رغم أنَّها تعرف إمكانياته الماديّة المحدودة. ولم يكُ يخفى عليها، أنَّه لا يملك الكثير. شيئًا فشيئًا صارت تخنقه بطلباتها التي لا تتوقف.

تلّبسه القلق وبدأت الفجوة تتّسع بينهما.

هل هذه هي الإنسانة التي أحبها؟ لكنّ قلبه يمتلئ بحبّها حتّى يفيض.

لقد أخبرته عن كل تفاصيل حياتها بكلّ صدق وهو ما أبهره وكان سببًا لتعلقه بها. قرّر أن يتمسّك بها مهما كان الثّمن.

الدّيون .. سيستدين، لا بأس ..

لكن ليظلا سويًا، فحبها يملأ قلبه ويهيمن على وجدانه ..

بمباركة الأهل تمت الخطبة.

الحبّ ذلك الشيء الفريد الذي يمكنه أن يزرع في أحلك الظلمات فجرًا يشق نوره ويصل إلى القلوب.

كان ذلك هو جوهر مشاعره. كانت "عبير" لـ"مالك" كل شيء وأكثر.

ظل يغدق على قلبها من حبّه حتّى ملّت ..

وكانت الصّدمة. لم يكُن يتخيّل أن "عبير" التي عشقته بكل تفاصيله.

بحكاياته، بمرحه .. بجنونه .. بكل شيء.

وجعلت قلبها سكنًا له في غربته، ستملّه وتملّ حديثه ويصبح ثقيلًا على قلبها كليل الغياب .. هذا ما حدث. اعتادته. وتلك آفة الحبّ .. الإعتياد ..

بدأت تتهرب من مكالماته التليفونية شيئًا فشيئًا، وكان يعرف ويتألم دون أن يعاتبها. أيّاما تمّر، والفجوة تتّسع .. يتألم أكثر..

"أتراها لم تعد تحبّني ؟؟" يحدث نفسه. لا يتحمّل مجرد التّفكير في الأمر.

يلتقيها، ويواجهها بشكوكه. في البداية تنكر، ثم تسكت ..

شـيئًا فشـيئًا بـدأت تصـمت حـين يَسـأل. تريـده أن يصـدق حدسـه، لكنـه لا يصـدّق وينهي الحـوار.. يعـود يسـألها فتؤكـد شـكوكه حتى جـاءت اللّحظـة الفارقة:

"لم أعد أشعر بأنّي أحبّك".

كانت الصّفعة قويّة. أحسّ بشيءٍ ثقيل يجثم على صدره ..

اختنق، وامتلأ قلبه بالبكاء الذي كان أبيًّا.

قاوم ضعفه و انسحب في صمت .. إعتصره الألم أيّامًا. لم يخطئ في شيئ ..

شعورًا غريبًا بالرّاحة بدأ يتسلّل لقلبه.

أحسّ أن الله أراد أن يختبره بـذلك الألـم، و أنـه سيعوضـه خيرًا عـن كل ذلـك فرضي.

تمت

***

نور

"خرجـت ترقـب نـور الصّـباح مـن غرفتهـا إلى الشّـرفة التي تطُـلّ على الشّـارع. وفي حنين قـديم مدّت يـدها لـتلمس السّـياج الـذي وضـعه قبـل رحيله وقطعتي المنشر.

ثلاثة أشهر مرّت ولا خبر عنه.

لم يُتلفنها ولم يرسل رسالة بالبريد.

لا تعلم أين هو الآن وماذا يفعل.

كل ما تعرفه عنه أنه سافر إلى "أستراليا" بعد أن فتحوا باب الهجرة الذي كان مغلقًا في وجه العرب والمصريين بالتّحديد لمدّة عشر سنوات.

كانت هناك هجرات على استحياء من لبنان والعراق، ولكنّ السّفارة الأسترالية بالقاهرة ترفض أي طلبات للهجرة وتنصحهم بتحويلها إلى سفارة "نيوزلاندا".

البلد ليس بعيدًا عن "أستراليا" ولكنّها باردة جدًا وليس بها نشاطات تذكر سوى الزراعة والرّعي وبعض المصانع القائمة على صناعة الألبان ومدابغ الجلود.

كانت آخر رسالة تلقتها منه في أوّل تموز (يوليو) الماضي.

اليوم تودّع أيلول (سبتمبر) دون أن يصلها منه خبر.

لماذا سافر هو السّؤال نفسه ..

تعيده على خاطرها وتكرره دائمًا.

لم تكن مقتنعة برحيله كثيرًا. رغم أنّه كان لابد أن يضع حدًا لفشله في الحصول على فرصة عمل مناسبة أو غير مناسبة ولكن بر اتب يضمن له أن يفتح بيتًا.

أمسكت بحافة "المنشر" و مررت يدها على الحبال ، وكأنّها تخاطبه فيها.

لا تنسى أنّه هو الذي أحضر المنشر والحبال قبل أن يسافر عندما أرسله خاله إلى منزلهم وأخبره بأن المَنْشَرْوقع وتهدّم جزءٌ من سور الشرفة. طلب منه أن يحضر أحد "الصنايعية" كي يقوم بتركيب مَنْشَرْ جديد و يصبه بالأسمنت والجبس ويتأكّد من صلابته حتى لا يتكرّر سقوطه.

الأمر على الرغم من بساطته إلا أنه خطير. فقد يسقط على رأس أحد المارة فيصيبه، أو يقتله. كما كاد أن يفعل في المرّة السّابقة.

"نور" التي هي وحيدة أبيها. لم تعرف في الدنيا من جنس الرجال، غير "مصطفى" ابن عمّتها الوحيد، وكان يكفيها ذلك جدًّا.

"نور" تعلّقت بـ"مصطفى" منذ أن كانت طفلة بجدائل. يأتي إلى بيتهم ويلاعبها. وحين كانت في الرابعة من عمرها كان هو في الصف الثالث الإبتدائي.

يكبرها بسبعة أعوام تقريبًا أو أقل قليلًا. فهو بالنسبة لها أخيها الأكبر.. إلى أن بلغت الرابعة عشر.

تطوّرت العلاقة ، فصارت تشعر بالخجل منه ولم تعد تتحمّل المزاح السّخيف الذي يضايقها به.

لم يشعر هو أن ابنة خاله "نور"، لم تعد تلك الصغيرة التي كان يدللها. وكان ذلك يضايقها.

وعندما أحسّ بتغيرها تغيّر هو الآخر ولم يعد يزورهم مثلما كان.

تألمت واشتاقت وناحت في وحدتها كثيرًا.

وطويلًا ..

لكنّها لم تخبره. سافر دون أن تعلم بذلك.

وأوّل رسالة وصلت منه بعد شهرين من رحيله أرسلها إلى خاله يخبره فيها بأنّ الوضع سيء وليس كما تصور.

لم يذكرها فيها. تألّمت .. لكنّها حمدت الله أنه بخير.

بعد شهرين ذكرها في رسالته. فرحت كثيرًا وقرّرت أن ترسل له.

إستمرّت الرّسائل بينهما ..

صارحها بأنّه اشتاقها كثيرًا .. فغمرتها الفرحة وكادت أن تطير.

صارحته بحبها. قرر أن يعود.

لكن فجأة انقطعت رسائله. شهران لم يرسل لها.

بدأ القلق يزداد. أحداث البلد تقلق. يتحدثون عن قيام ثورة.

أحداث عنف في ميدان التحرير. بالقرب من الشارع الذي يسكنون فيه.

أرسلت إليه تطلعه على التطوّرات.
فاجأتها رسالته بأنّه حجز في رحلة الغد.
لم تصدّق نفسها من الفرحة. ولكنّها أدركت حجم الخطر في أن يعود الآن.
ميدان التحرير يعجّ بالثّوار. والشّرطة لا ترحم أحدًا.
أغلقوا شارعهم. اليوم موعد وصوله ..
لن تذهب إلى المطار لاستقباله. لا يمكنها ذلك.
محاصرون في بيتهم. لا أحد يتحرّك إلا للضّرورة.

أنباء عن وجود ضحايا في إشتباكات قوات الأمن مع المتظاهرين في شارع محمد محمود لم يتم التّعرف على جثث القتلى حتّى الآن.
الجثامين لا تزال بالمشرحة.

مريض سكر

بعد العشاء دخل إلى متجري الصّغير الذي أبيعُ فيه المستلزمات الطّبية ولوازم الجراحة رجلًا مشيته غير سويّة وتبدو عليه علامات عدم الإتّزان. سأل عن سعر علبة شرائط السّكر.

كان يُتهته في الكلام لدرجة أنني لم أفهم طلبه في البداية. قال بصوت متهدل عانيت حتى فهمت ما قاله: "هل لديك علبة شرائط لهذا الجهاز؟"

وأعطاني علبة فارغة لجهاز ماركة (جلوكوستارGluco-Star).

تفحصّتُ العلبة الفارغة جيدًا ثم أخبرته بأنّي لا أبيع هذه النّوعية. ولكنّ سأبحث له عنها. أخبرني أن أخيه الذي يعمل بمدينة "مرسى مطروح" لم يجدها هناك فأرسل له نقودًا كي يشتريها له.

"لا بأس يمكنني العودة مرّة أخرى في وقت لاحق ربما أجدها متوفرة لديك."

نظرت إلى وجهه الباسم المضيء وهو يحاول أن يتمّ جملته بصعوبة.

ابتسمتُ بدوري وقلتُ: "إن شاء الله."

همّ بأن يخرج، ولكنّه تذكر شيئًا، فالتفتَ إليّ مرّة أخرى يسألني:

"ولكن .. هل هذه النّوعية متوفرة؟"

وأخرج علبة فارغة أخرى أعرفها جيدًا فأجبته فورًا دون تردد:

"نعم .. موجودة وسعرها مائة جنيه."

ولكن السعر سيتغيّر بعد أسبوع واحد. الأسعار ترتفع بطريقة مرعبة كل يوم، واليوم أبيعها بهذا السّعر، لكنّي لا أضمنه لك بعد أسبوع.

طأطأ رأسه بأسى: "خُسارة. ليس معي النّقود الآن. كنتُ أود أن آخذها منك قبل أن يرتفع سعرها .. لكن لا بأس .. أول الشّهر سأقبض وأشتريها إن شاء

الله. ولكن هل تستطيع أن تحجزها لي الآن وتأخذ هذا المقدم البسيط (مخرجًا خمسة عشر جنيهًا من جيب سرواله) وتعطينيها بنفس السّعر دون زيادة.

إبتسمت و أنا أسأله: ألم تأتِ لتشتري لأخيك؟ فإذن معك نقود. يمكنك أن تأخذها الآن دون الإنتظار إلى الأسبوع المقبل.

أطرق برأسه يهزها بأسف: "هذا ليس مالي. إنه مال أخي وطلب مني أن أشتري له علبة الشرائط لجهازه. لا أستطيع أن أشتري بماله شيئًا لي. هذه ليست أمانة."

شعرتُ بالخزي من كلماته التي أفاقتني، فقلت و أنا أسحب له كرسيًا ليجلس: "يبدو أنّك مرهق. هل تجد صعوبة في المشي."

ابتسم وهو يقول: "لا .. الحمد لله لا أجد صعوبة الآن."

ثم فتح عينيه فجأة كأنما تذكر شيئًا وسألني: "هل أنت مشغول الآن؟

قلتُ له بعد برهة من التفكير: "لا .. ولكن لماذا؟"

قال وهو يبتسم في رضى: "أريدُ أن أحكي لك قصّتي. إن لم يكن لديك مانع طبعًا."

ابتسمتُ و أنا أهز برأسي: "لا .. ليس لديّ مانع."

ثم راح يقصّ عليّ ما حدث له:

"منذ خمسة أعوام، كنتُ أسكن في بيتي الكائن في هذا الشّارع الذي فيه متجرك. كان لدي مصنعًا أملكه وحدي. تخصّصتُ في صنع القبّعات العسكريّة. كنتُ أصنع الكاب الكاكي والزيتوني، وغطاء الرّأس الخاص بالقادة، والخوذ التي يضعها الجنود على رؤوسهم، تحميهم من الطّلقات والشظايا وغيرها. كانت صناعتي مزدهرة فتعرّفتُ على بعض القادة الذين منحوني عطاءً كبيرًا لتوريد (كابات) للضّباط والصّف والجنود فأتممتُها على أكمل وجه.

أعجب بعملي نائب الوزير ودعاني لشرب فنجان من القهوة معه.

جاءني لواء أركان حرب "س. ط." و أبلغني بأنّ السّيد معالي نائب وزير الدّفاع شخصيًا يدعوني لفنجان قهوة في مكتبه صباح الأربعاء القادم.

تهلّل وجهي فرحًا ورحبتُ بالدّعوة ثم شكرته، فقال لي ممازحًا:

"ربما سيمنحك عطاءً جديدًا لإدارة الفرق. سيكون الأمر مربحًا لك، فلا تنساني."

ضحكنا سويًا و أنا أقطع له وعدًا بأنّني لن أنساه.

ذهبتُ في الموعد المحدد أو قبله بدقائق.

دخلت إلى المكتب فاستقبلني سكرتير السّيد الوزير وأجلسني في غرفة الإنتظار. بعد دقائق دخل أحد الضّباط يحمل غطاء دبابة Tank McT-١٠٧ متعدّدة المهام ومعه زميله. هذه الدّبابة أسطورة، كانت مصر قد استوردتها من أمريكا مطلع العام قبل الماضي لكنها لم تدخلها في السّلاح.

دار حديثٌ بين الإثنين الو اقفين على باب المكتب، فقال أحدهما للآخر:

"لقد عرضتُ (الهانجر) على أكثر من ترزي متخصص، فلم يفلح أيّ منهم في تقديم شيء ولو قريب من هذا التصميم. لابد أن السّيد نائب الوزير سيغضب كثيرًا. دخل الاثنان في حين انتظرتُ دوري لأدخل بعد خروجهما. بعد أقل من دقيقة جاءني الإذن بالدخول إلى مكتب السّيد نائب الوزير.

رحّب بي وأجلسني على الكرسيّ القريب من مكتبه ثم أكمل حواره مع ضباطه:

"الفشل شيء بشع ومُخزٍ و أنا لا أقبله إطلاقًا.

يجب أن يكون هناك حلّ. لن نلجأ لأمريكا من أجل شيء تافه مثل هذا. أمريكا أوقفت تصنيع هذه الدّبابة وقطع غيارها لكننا استطعنا بفضل الله تصنيعها هنا.

"سيدي .. هذا ليس شيئًا تافهًا. إنه مهمٌ جدًا ومُصمَّم على أعلى مستوى كي يضمن الحماية والتركيز لقائد الدبابة."

قال أحدهم وهو يشير إلى غطاء الرأس.

أومئ القائد برأسه وهو يقول: "لا أقول أنه غير مهم. لكننا فعلنا الصّعب. صنعنا الماسورة بنفس القطر، بالمليمتر. وصنعنا غرفة إطلاق النّار بدقة متناهية كما هي بالضبط. والآن يُعجزنا هذا الشيء التّافه ..!

أليس الأمر مخزيًا؟ .. ألا تجدونه كذلك أم أنّني أبالغ؟

أطرق الإثنان دون أن يتفوه أحدهما بكلمةٍ واحدة. وقبل أن يسمح لهما بالإنصراف قلتُ مباغتًا: "أنا أستطيع أن أصنع مثله سيدي."

فغر الرجلان فاهيهما وهما يحدّقان بي ويتفرسان في وجهي ليعلما مدى صدقي.

"كيف تستطيع؟. لقد عجز أمهر الصُنّاع في عمل نموذج مثله. هل تريد تضييع وقتنا فقط؟. قل من البداية."

أشار لهما القائد بالصّمت، ثم سألني:

"كم تحتاج وقتا لصنع نموذج مثله؟"

قلتُ و أنا أشعر بالزهو، والعرق يتصبّب من كل مسامي:

"يومين سيدي. أحتاجُ فقط إلى يومين."

إبتسم الرجل في ثقة وقال: "بل أسبوع كامل .."

وموعدنا الأربعاء المقبل في هذا المكان، في نفس السّاعة. في الحقيقة أرسلتُ إليك من أجل أن أشكرك بنفسي على تصميماتك الرّائعة للكاب الخاص بالقادة، وكنتُ أريد أن أطلب منك تصميمًا جديدًا للصف والجنود. لكن هذا الأمر مهم أكثر بالنسبة إلينا. لديك كل الوقت الذي تحتاجه وأكثر. أشكر لك شجاعتك وإقدامك، وأتمنّى أن تستطيع ذلك فعلًا في أقرب فرصة فالوقت مهم جدًا بالنّسبة إلينا. وأتمنى أن تخيب ظنّي وظنهما وألا تكون بالفعل قد ضيعت وقتنا. ثقتي كبيرة بك. أنتظرك الأسبوع المقبل.

مع السّلامة. تصافحنا وغادرت حتى قبل أن أشرب قهوتي.

أخذت نموذج (الهانجر) وعدّت إلى بيتي.

لم أذهب إلى ورشتي في هذا اليوم.

نمت لثلاث ساعات، ثم استيقظت وطلبتُ من زوجتي أن تصنع لي كوبًا من الشّاي ففعلت.

أمسكت بنموذج الغطاء وقسّمته إلى نصفين متشابهين تمامًا. نصف فككته بالكامل قطعةً قطعة، ونصف تركته سليمًا كما هو، أعود إليه كدليل إذا لزم الأمر.

بعد يومين كاملين لم أذهب فيهما إلى مصنعي الصّغير كنتُ قد انتهيت من التّصميم. صنعتُ نموذجًا مشابهًا تمامًا للهانجر الذي أخذته.

نسخة طبق الأصل حتّى في لون القماش.

وضعته في حقيبتي سريعًا مع النموذج الأصلي. ودون أن أنظر إلى السّاعة، أوقفت سيارة أجرة من أمام بيتي و انطلقتُ قاصدًا وزارة الدّفاع. وصلتُ إلى هناك ثم عبرت إلى الدّاخل وأخبرتهم بأنّي أريد مقابلة السّيد نائب الوزير. سألني الحرس هل من موعد مسبق فكذبت وقلتُ نعم.

راجعوا دفتر الزيارة فلم يجدوا اسمي. هَمُّوا بأن يتخذوا ضدي إجراءً أمنيًا. لكنّ عناية الله أرسلت بالصدفة أمامي أحد الضابطين الإثنين الّذين كانا حاضرين للإجتماع مع السّيد نائب الوزير.

أول ما لمحته صحتُ أناديه وهم يجرُّوني إلى الخارج، لكنّه سمعني. التفت فتعرَّفَ عليَّ، فأشار لهم أن يتركوني.

توجّهتُ إليه لأخبره بما فعلت، فطلب أن يرى النموذج.

أخرجته من الحقيبة ولما رآه ذُهل. فتح عينيه من الدّهشة وكاد أن يقبلني.

"أنت مذهل ..!! إنّه مطابق تمامًا."

تحسسّ الأذنين من الداخل والخارج فوجدهما مبطنتين نفس السُّمك ونفس الوزن تقريبًا. فتح عينيه عن آخرهما غير مصدّق، وأخذني من يدي مهرولًا باتجاه مكتب السّيد نائب الوزير.

أخذ الإذن من السّكرتير بالدّخول وأخبره بالأمر فما لبث أن عاد يُعلِمُنا بأن القائد ينتظرنا.

دخلنا وعندما رآني هبَّ و اقفًا يبتسم ويشير نحوي بهشةٍ وبشة.

نظرت خلفي علّي أجد أحدًا من القادة العظام فلم أجد.

ضحك الّرجل وهو يشير إليّ لأجلس.

ما إن جلست حتّى أمسك القائد بالنموذج ثم مدّه إليه:

"انظر سيدي، إنه مماثل له تمامًا. إنّها معجزة. هذا الرجل بارع حقًا."

تفحّص القائد (الهانجر)، وفجأة انتفخت أوداجه واحمرّت أذنيه ثم صرخ في وجهي والشّرر يتطاير من عينيه: "هل تسخر منّا يا هذا؟

تعيد لي نفس الهانجر الذي أخذته وتقول أنك صنعته.؟"

صُعقتُ ودون تردد أخرجت النموذج القديم من حقيبتي وأعطيته له.

فغَرَفَاهُ من الدّهشة ثم ضحك بشدّة وهو يعتذر ويحقّ نفسه.

كاد الرجل أن يقبل رأسي وهو سعيد، مغتبط بصنيعي.

في أقل من شهر قمت بتصنيع خمسين هانجر آخر.

بدأت صناعتي تتوسع، وبعد أن كنتُ أعمل بمفردي، أحضرتُ عُمّالًا ليساعدوني وعلّمتهم.

يومًا بعد يوم، ربحي يزداد إلى أن جاءت تلك اللّيلة.

بعد أن أكلت. جلست أتسامر قليلًا مع زوجتي وأولادي فغلبني النّعاس. نمتُ على الأريكة أمام التلفاز.

طلبت منّي زوجتي أن أدخل لأنام بالغرفة، لكنّي رفضت. أشرتُ لها أن تتركني لأنام هنا.

بعد ساعات استيقظتُ فأحسستُ بثقل في كامل جسدي. هممتُ بأن أقوم فلم أقدر. حاولتُ أن أنادي على زوجتي أو أيٍّ من أبنائي لكنّي عجزت. أخذت أصيح. خرج صوتي مثل نعيق البوم.

لم يصل إلى آذانهم.

حاولت بشتى الطّرق أن أفعل أي حركة من شأنها أن تُحدِث صوتًا.

مددّتُ يدي على آخرها إلى الطاولة الصغيرة التي وضعتُ عليها جهاز التحكم عن بعد الخاص بالتّلفاز فالتقطتُه بعد عناء.

ضغطتُ على زر التشغيل وهممتُ بأن أرفع الصوت إلى أعلى مستوى له، فانقطعت الكهرباء في نفس اللحظة. بكيتُ من الألم ومن الحسرة. حاولتُ أن أصيح فلم يسمع أحد صوتي..

حاولتُ أن أضرب بقدميّ على الأريكة، لكنّي لم أستطع تحريكهما.

أصبتُ بشللٍ كامل.

نصف وجهي الأيسر لا يتحرك، ولم أعُد أشعرُ بشيء.

إستجمعتُ قواي كلّها وركّزتُ ناحية التّلفاز، ثم قذفتُ بجهاز التحكم نحو شاشته فكسرتها.

انفجرت الشاشة محدثةً صوتًا عاليًا.

إستيقظت زوجتي من نومها فزعة، وجاءت تركض وتسألني عن الأمر.

أشرتُ لها بعدم مقدرتي على الحركة أو الكلام.

طلبت سيّارة الإسعاف و أيقظت ابني و ابنتي ثم أخذوني إلى المستشفى.

"أُصيبَ بجلطةٍ في الدماغ، ستمنعه من الكلام ومن الحركة. الحالة سيئة جدًا. لا أخفي عليكم .. ربما لن يستطيع السَير مجددًا أو الكلام."

هكذا أخبرهم الطّبيب فحجزوني بالمشفى.

تأتي زوجتي و أبنائي كل يوم صباحًا ويغادرون بالمساء.

لا أستطيع أن أتحدث. أحرك أصابع قدميّ بصعوبة.

يدي اليمنى فقط هي ما يتحرك بجسدي.

نصفي الأيسر وقدمي اليمنى مشلولين.

بعد شهر ملّت زوجتي وملّ أبنائي من وضعي هذا فقرروا أن يعودوا بي إلى المنزل بعدما حصل منهم الطبيب على وعد بأن يهتمّوا بي وأن ألقى في بيتي نفس الرّعاية التي ألقاها هنا.

عدنا إلى البيت قبيل الظهر. رقدتُ في سريري طوال اليوم.

الجميع في الخارج يمارس حياته الطّبيعية، و أنا هنا قعيد الفراش.

مرت أيام، ووضعي يزدادُ سوءًا، و أبنائي لا يُلقون إليَّ بالًا، ولا أحد يتذكرني إلا ساعة الغداء.

تَدخُل ابنتي وتضع صينية الطّعام على فخذي بعد أن تُقيمني جالسًا. أحاول أن أُمسِكَ بالملعقة وأغرف من الطبق، لكن أغلب الأكل يسقط على الفراش.

كانت تساعدني في البداية، لكن مرّة بعد مرّة أهملتني تمامًا.

لا أستطيع الوقوف لأدخل إلى دورة المياه، فكنتُ أقضي حاجتي في قصريّةٍ بمكاني على السّرير حتى اشمئزوا مني.

أهملوني تمامًا..

لم يمر شهر حتى ضاقت بي زوجتي ذرعًا وكذا أولادي، فقرروا السفر.

طلبوا من أختي أن تأتي لتهتمّ بي.

سافروا بأموالي إلى محافظة المنصورة واستقرّوا هناك عند بيت أهل زوجتي وتركوني هنا وحيدًا.

تأتي أختي كل يوم صباحًا، فتطعمني وتعطيني حفنةً من الحبوب – لعلاج الجلطة – ثم تذهب إلى عملها.

بعد عودتها من العمل تمر عليّ لتعطيني الجرعة الثّانية وتضع أمامي الطّعام وتمضي إلى حال سبيلها.

كنتُ أشير لها فتفهم أنّي أسأل عن زوجتي وأولادي.

تصرخ في وجهي: "لقد اشمئزوا منك وأصابهم القرف.

ملّوا فرحلوا دون رجعة، فلا تسأل عنهم من جديد ولا تكرر على مسامعي ذكرهم مرّة أخرى."

أنصتُ لها وعيناي تحتشدان بالدّموع .. تبكي عيني اليمنى وتظل اليسرى ثابتة محدقة إليها. تصرخ في وجهي وتزجرني.

وقبل أن أكمل طعامي تحمل الطبق إلى الداخل.

ربما أصابها الملل هي الأخرى. لم تعد تزورني إلا مرّة كل يوم.

فرغت الحبوب فلم تكرر لي الدواء.

أختي التي كنتُ أنفق عليها وعلى زوجها وأولادها.

كانت لا تتمنى شيئًا إلّا وأحضره لها.

أفخر الثياب .. أحدث الهواتف النقّالة .. أجهزة الكمبيوتر لأولادها .. أطقم الصيني .. كل ما كانت تطلبه.

حتّى زوجها، منحتُه قرضًا كبيرًا ليبدأ مشروعه ولم يسدد لي منه شيئًا إلى الآن ولم أسأله.صلة الدّم والرّحم .. كل ذلك لم يشفع لي عندها لتتحمّلني.

ضجّت بي كما ضجّ أبنائي.

وفي ليلة من الليالي، بينما كنتُ راقدًا على السّرير؛ يشتدُّ بي الألم. وكانت الغرفة مظلمة، والنافذة ترسل إليّ ضوءًا خافتًا مصدره عمود الإنارة البعيد بالشّارع.

شعرتُ بمغصٍ شديدٍ في بطني لا يتوقف.

حاولتُ أن أتماسك ولكنّه اشتدّ عليّ. شعرتُ بأن أمعائي تتقطع، ولم أتمالك نفسي، فأخرجته سائلًا.

إشمئززتُ من نفسي.

تمنيتُ لو أنّني أستطيع فقط أن أصل إلى دورة المياه كي أنظّف نفسي.

لم أتحمّل الرّائحة .. ولم أتحمّل عجزي ..

حاولتُ أن أقوم ولكنّي فشلت.

قررتُ أن ألقي بنفسي من على السّرير وأزحف على بطني نحو الباب.

إستجمعتُ قوتي في جانبي الأيمن ومددتُ ذراعي نحو الكومود القريب، فاستطعتُ الإمساك بطرفه بصعوبة.

جذبته نحوي فانكفأ، لكنني لم أيأس ..

قررتُ أن أحاول مرةً أخرى، تزحزتُ قليلًا حتى وصلتُ قريبًا من الطّرف فمددتُ يدي لأمسك بطرف السّجادة التي يستقرُ فوقها السّرير. جذبتها نحوي فسحبتني. أجذب بكل ما أوتيت من قوة، وهي تسحبني شبرًا شبرًا إلى الأسفل. إزددتُ همّةً وإرادةً رغم ضعفي.

سحبتُها بكل قوتي، فسقطتُ من فوق السرير على وجهي ..

تألّمتُ، ونزفتُ من أنفي، لكنّي لم أبالِ بالألم وقررتُ أن أكمل محاولتي. حاولتُ أن أزحف نحو باب الغرفة، لكنّ قواي لم تسعفني وخارت. مسحتُ الدّماء التي سالت من أنفي بكم قميصي الأيمن. قبعتُ مُلقىً على الأرض وملابسي ملوثة، ورائحتي نتنة وقد انتثر البراز وغطى السّجادة.

أسندتُ وجهي إلى الأرض و أنا أبكي.

ناجيتُ الله بقلبي وبنصف لساني الذي يتحرك..

الله هو الرحيم.

اللّهم إنك تعلم عجزي وقلّة حيلتي، وضعفي.

إمنحني القوّة منك. لا أحد لي غيرك.

لا تتركني أعاني كما تركوني ..

خنقتني الدّموع و أنا أنوح و أضج، وأدعو الله.

أحاول الصّراخ بصوتي ..

فجأة .. شعرتُ أن صوتي يخرج. لم يكن كذلك من قبل.

حاولتُ الصّراخ و أنا أبكي .. و صوتي يرتفع.

زدتُ من صراخي أكثر و أنا أدعو و أقول يا رب ..

الدّموع التي كانت تخنقني انهمرت لتملأ وجهي وتغرق السّجادة.

ملأتُ صدري بنفسٍ عميق .. سحبته بكل قوتي ثم صرخت: "يااااا رب.."

خرج صوتي مُعاقًا، لكنّي شعرتُ بلساني يتحرك.

أحسستُ بتنميلٍ في كفِّ يدي اليسرى.

حاولتُ أن أفتح أصابعي وأضعها على الأرض ببطء حتى تمكنتُ من ذلك.

"يااا رب .."

خرج الصّوت أقوى من ذي قبل. لساني يتحرك أكثر، لازلتُ أتلعثم.

حاولتُ أن أُحمّل جسدي على يدي. شعرتُ بطاقةٍ في ركبتيّ فحمّلت.

دُستُ بيديّ على الأرض دافعًا جسدي لأعلى، فارتفعت قليلًا.

سحبتُ ركبتي اليمنى سريعًا فوجدتُها تستجيب لي.

فرحت و ازدتُ همّة. زحفتُ باتّجاه الباب فتمكنتُ من ذلك.

دفعتُ الباب الموارب بعنف، فانفتح محدثًا جلبة.

"يااا رب .."

تأتيني القوة شيئًا فشيئًا ..

حاولتُ أن أسحب قدمي اليسرى إلى الأمام.

مرّة بعد مرّة تمكنتُ من ذلك.

ثبّتُ ركبتيّ على الأرض ثم وقفتُ منتصبًا بنصفي.

كنتُ أبكي و أضحك في نفس الوقت. أبكي من حرقتي، خيبتي وخذلاني من أقرب النّاس إليّ وأصرخ شاعرًا بها تخرجُ من الأعماق و أدعو الله في نَفَسٍ واحد... "يااااااااا رب .."

أضحكُ لأن الله يقول لي أنه هنا .. معي .. ولن يتركني.

إذا تخلى عنّي الجميع فالله هو اللطيف ..

أبكي ولا أتوقّف عن صراخي .. "يااااااااا رب .."

سمعتُ طرقًا على الباب. أواصل الصّراخ بصوت غير مفهوم تمامًا ..

"يااااااا رب ..".

الطّرقُ يزداد على الباب .. و أنا أصرخ. أسمعهم يتصايحون:

"(الرّجل يموت بالدّاخل. لنكسر الباب الآن)".

ثوانٍ ودخل جيراني و انتشلوني من الأرض.

تقززوا من الرّائحة لكنّهم لم يتركوني.

الشّيخ "إبراهيم" لم يتركني. "أحمد صالح" حملني. أدخلاني إلى دورة المياة.

حينما أوقفوني أسندتُ يديّ على الحوض فاستطعتُ الوقوف للحظات. وقبل أن أسقط أمسكاني، وهما يستبشران.

حاولت الوقوف مرّة أخرى .. قدماي ترتعشان.

رويدًا رويدًا أتشبثُ أكثر.. أشعر بثبات قدميَّ.

نظّفاني و هّمّا أن يعيداني إلى سريري بعد أن سحبا الفراش المُلطّخ بالبراز وألقياه بعيدًا، لكنّني رفضتُ أن أعود إلى السّرير، و أشرتُ لهم بهمهمةٍ أن يجلساني في الصّالة. على نفس الأريكة التي نمتُ عليها قبل مرضي.

إنصاعا لطلبي ثم استأذنا لصلاة العشاء، ووعداني بالعودة للإطمئنان عليّ وإعادتي إلى الغرفة.

طلبتُ من الشيخ "إبراهيم" أن يدعو الله لي أن يشفيني.

نظرتُ إلى أحمد وطلبتُ منه أن يدعو لي أيضًا.

بكى الشيخ "إبراهيم" من توسلاتي.

لم أزل أبكي و أقول.. "يااا رب . الحمد لك يا لطيف".

يا لطيفًا بكل لطفٍ خفي.. أُلطُف بي واشفني.

لساني يُخرج الكلمات مفهومة إلى حدٍ ما.

أحمَدُ الله فينعدلُ لساني. بكيتُ حبًّا في الله ..

لقد أنقذني .. الحمد لله ..

حاولتُ أن أقوم وقلتُ: بقوة الله وحوله.. يااا رب..

إستطعتُ أن أقف، وغمرني الشّعور بالسّكينة ..

بدأتُ أخطو بخطواتٍ بطيئةٍ زاحفةٍ إلى الباب.

فتحته ونظرتُ إلى الشّارع. تطلّعتُ إلى المسجد هناك.

شعرتُ بشوق لا حدَّ له.

أريدُ أن أذهب.

أستمع إلى صوت الإقامة فأشعر بلذّةٍ تطربني.

ما هذه الحلاوة؟ لم أشعر بها من قبل.

كيف كنتُ هكذا.. أعيش بلا حياة؟

كيف لم أتذوق تلك الحلاوة من قبل؟

أستمع لصوت الإمام فأشعر بنسمة تدغدغ جسدي وتنعش فؤادي.

يكاد قلبي يطير إلى هناك..

دعوتُ الله أن يُمكنني من السّير إلى هناك. لكن قبل أن أصل إلى مدخل البيت، التقيتُ "أحمد" والشيخ "إبراهيم" في طريقي.

إبتسما فرحين وهما يحمدان محاولتي.

أخذاني وصعدا بي إلى المنزل. تركنا "أحمد" ومضى مستئذنًا لدقائق ثم عاد يحملُ كيسًا مملوءًا بالطّعام و العصائر. شكرتُه بحروفٍ متآكلة و أنا أبكي. لم يستطع فهم ما أقوله من كثرة البكاء.

تأثر الشيخ "إبراهيم" وأخبرني بأنّ صبري على البلاء و احتسابي عند الله له أجرٌ عظيم.

كنتُ سعيدًا جدًا بوصولي لهذه الحالة.

لقد كنتُ قعيدًا طريح الفراش، لا أتحرّك. ومنَّ الله عليَّ الآن.

يومًا بعد يوم استطعتُ أن أخرج إلى الشّارع.

علمت أختي بالخبر فجاءت لتتأكّد. عندما رأتني و اقفًا أتحرّك أمامها لم تهتز. وكأنّه أحزنها أن الله شفاني.

لم يعد يهمني ..

شعرتُ بشوق إلى المسجد فتركتها ونزلت. وقلتُ لها بلغة أقرب إلى الإشارة أن تغلق الباب خلفها بعد أن تنزل. ثم مضيتُ في طريقي.

أنظرُ إلى السّماء فكأني أرى الله يتجلّى إليّ.

أناديه و أبكي .. أشعر بالحبّ يملؤ قلبي تجاهه.

أصارحه بحبي فأشعر بالسّعادة تغمرني ..

يا رب ارضَ عني. أريد رضاءك فقط.

أتعلم .. لا أعرف اسمك حتّى الآن؟

"ما اسمك سيدي الدكتور؟"

"اسمي "عاطف" .."

"حسنًا دكتور عاطف. أعتقد أنّك تفهم كلامي جيدًا الآن. أنت لا تعاني في فهم كلماتي. أليس كذلك؟"

"بلى سيد ..."

"مالك" ..

كانت ابتسامته لا تفارق وجهه. جذبني ذلك الشّعور بالرّضى الذي سطع في وجهه، وكلماته الرقيقة التي يخاطب بها الجميع.

دقّ هاتفه النقال فأجاب بعفوية. راح يحكي مع سيدة لم أعرف من هي، ولكنه راح يعبرلها عن إمتنانه وشكره على الطّعام الذي أرسلته له اللّيلة الماضية. ويُسهب في وصفه له بالشّهي و أنّه منذ أعوام لم يذق مثل هذا الطّعم.

إستمرحديثه معها قرابة العشرين دقيقة.

لم أملّ منه .. أستمع إليه وهو يحكي علانية. لا يخشَى أن أسمع ما يدور بينه وبين تلك السّيدة. فهذا لا يهم.

ليس لديه شيء يخشى عليه. وليس لديه أسرارتخيفه.

إنتهى من مكالمته وعاد يستطرد حديثه:

ملابسي كلّها ضاقت عليّ. عطف عليّ أحد الفضلاء بقميصين وسروالين من أجمل ما يكون. لم يرتديهم سوى مرة ربما أو مرتين.

انظر.. انظر كم هو جيد..!

وهو يمدّ إليّ بطرف كمّه و أنا أتحسّسه وأومئ برأسي مؤيدًا.

"كذلك أرسل لي حذاءً جديدًا ..

لكنّه للأسف ضيّق ولا أستطيع لبسه.

أهل الخير كُثُر..

أتعلم .. في ليلة ما و أنا أشاهد قناة القرآن الكريم والنّاس تطوف حول الكعبة .. بكيت.

شعرت بالشّوق يزيد في قلبي إلى الله.

دعوته أن ييسر لي زيارة بيته الحرام.

لم يمر أسبوع حتى تصدّق عليّ أحد الأكارم بتذكرة طيران ذهاب وعودة، بل و إقامة في فندق متواضع، في غرفة مع ثلاثة أشخاص غيري.

حمدت الله كثيرًا وشكرته أن يسّر لي ذلك.

وعندما سافرت، لم يشغلني أمر الطّعام فالذي رزقني بالزيارة سيرزقني طعامي.

دخلتُ إلى الكعبة وبعد أن طُفت جلست لأستريح قليلًا وأستجمع قوّتي ثم أعود لأتابع.

صلّيتُ ركعتين في مقام الخليل "إبراهيم" عليه السّلام ثم جلستُ أدعو الله لكلّ من عطف عليّ وواساني في محنتي، ثمّ دعوت للرّجل الذي منحني الفرصة لأصلي هنا.

هل تعلم يا دكتور أنني لم ألكُ أستطيع السّجود قبل أن أذهب إلى هناك؟

كنتُ أرى النّاس وهي تسجد فتملؤني العبرة و أبكي .. أقول يا رب .. أتوق لأن أسجد لك مثلهم ..

أنا على يقين دائما بأن فرج الله أقرب مما أتخيل.

عندما وصلتُ الفندق طلبتُ من مسؤول الإستقبال أن يُدلَّني على إتّجاه القبلة، ثم طلبتُ منه كُرسيًّا.

دلّني على القبلة واعتذر لأنّه لم يجد لي كُرسيًّا لأُصلِّي عليه.

دخلتُ إلى المكان المخصص للصلاة وأسندتُ حقيبتي إلى جواري. قررتُ أن أصلي و اقفًا، وعند الرّكوع والسّجود سأستند إلى الحائط.

كان الأمر مؤلمًا.

مجرد أن أنحني إلى الأمام كان ذلك يؤلم فقرات ظهري.

هذه المرّة لم أشعر بالألم فقررت أن أتمادى.

ركعت و أنا أصلي فلم أشعر بألم. قررتُ أن أسجد .. فسجدت.

لم أصدق نفسي حينما سجدت .. فصرخت ..

صرختُ بصوتٍ مرتفعٍ و أنا أبكي، لدرجة أنّ عمال الفندق تجمعوا حولي وأرادوا أن يرفعوني ليروا ما بي. أشرتُ لهم بأن يتركوني. أخذتُ أبكي و أنا ساجد و أقول : "ألف حمد وألف شكر لك يا رب" ..

أبكي وأشهق. الجميع ترك ما بيده من أشغال وظل ير اقبني.

من هذا الرجل الذي لا يكف عن البكاء. يتهته بكلمات نصف مفهومة ..

فجأة أحسستُ بجلبة وتراجع الجميع عندما سمعوا صوتًا جهورًا ..

عادوا إلى أعمالهم بعد أن أخبروا الرّجل بما رأوه من أمر بكائي دون سبب.

إنتظرني حتى فرغتُ من الصّلاة ثم سألني عن حالي، فأخبرته بقصّتي التي حكيتها لك إلى أن وصلتُ إلى هنا. تأثر الرّجل، ورقّ ثمّ رأيته يبكي.

أخرج من جيبه مفتاحًا إلكترونيًا وقال أنت ضيفي.

كل ما تطلبه مجاب. وهذا المفتاح خاص بجناحي الذي أقيم فيه.

سأتنازل لك عنه لتقيم به مُعززًا مُكرّمًا.

لم أصّدق ما يحدث لي ..

ما كل هذا الكرم يا الله .. هذا كثيرٌ عليّ ..

لم أطلب معشار هذا. !!

أخذتُ حقيبتي و صعدت إلى الجناح الخاص بصاحب الفندق.

أقمتُ فيه حتّى فترة سفري.

كل ما أحتاجه من طعام أو شراب يأتيني.

كنت أقضي أغلب الوقت في المسجد الحرام.

وحين سافرنا إلى المدينة المنورة كنتُ لا أبرح المسجد النبوي إلا للنّوم. كنتُ أنتظر الوقت المناسب لأصلّي في الروضة الشريفة. الزحام شديد والحجاج لا ينقطعون.

و أنا بحالي هذا وضعفي، ولساني الذي لا يفهمه أغلب الناس ..

كيف سأدخل إلى هناك. كيف سأصلي في مسجد رسول الله ؟

قررتُ أن أجرب. ذهبتُ بعد صلاة الفجر فرأيت زحامًا شديدًا.

كان الرجال قد اصطَفُوا في طابور طويل جدًا لا أكاد أرى نهايته. رأيتُ عجوزًا يقترب من أحد عساكر الحرس ويطلب إذنًا بالدخول متجاوزًا الطابور، فزجره رافضًا إلَّا أن يأخذ دوره في الصفّ.

عاد العجوز خائبًا إلى آخر الصف. فقلتُ في نفسي:

"هذا رجل كبير وفعلوا معه ذلك. فما بالي أنا .. ماذا سيفعلُ بي لو سألته ؟؟"

هممتُ أن أتحرك إلى الخارج فنادى عليّ أحد الحرّاس:

"يا حجّي .. يا حجّي .. من هنا."

ور أيته يشير بيده إليّ بأن أدخل. همّ بأن يمنعني آخر فأشار له أن يكفّ عني. لم أصدّق نفسي ..

لقد تجاوزت كل الصّفوف و دخلت ..

لقد قُرّت عيني يا دكتور .. وصليتُ في الّروضة الشّريفة !!

لا حاجة لي بشيء في هذه الدنيا بعد ذلك ..

أنا في خير كثير والله ..

أتعلم أنّي في خير؟

كل هذه الأمراض التي تظنها بلاءً ليست إلا خير.

أنا لا أريد إلا أن أذهب إلى الله. لا أريد شيئًا من هذه الدنيا.

أجد متعتي في الصّلاة في المسجد. لا شيء آخر. الحمد لله."

لم أتمالك نفسي وهو يحكي، ولم أشعر بدموعي وهي تسقط رغمًا عنّي.

فرغم كلّ ما به، سعيدٌ وراض. يحمد الله على البلاء.

نظرتُ إلى حالنا فاشمأززتُ من حزننا على أمور تافهة .. وقد منحنا الله الكثير والكثير عِوضًا عنها.

قلتُ بنفسٍ يملؤها الرضى.. الحمد لله.

***

كارلايل وساعي البريد

ها أنا ذا ألتقيكِ مُجددًا يا صديقتي.
نداعبُ خيالاتنا سويًا .. ننبش ذاكرتنا معًا.

نفتش في خواطرنا ونبحث عن أحلامنا التي دفناها هناك.

الأحلام التي عشناها سويًا، حين كنا صغارًا.

ولما كبرنا وصارت تكبر معنا، رويناها بحنينٍ لا يعرف الموت.

اشتقتُ إليكِ كثيرًا .. وأعرف أنك اشتقتني كذلك.

فأنتِ بالنسبة لي روحٌ لجسد، وعطاءٌ حين يصيبه الحرمان.

ها أنا أعودُ إليكِ من جديد، ألوّحُ بيدي من بعيد، وأراكِ باسطةً ذراعيكِ تستقبليني وتغمريني بنشوة، كأمٍ تحتضن ولدها الغائب.

وكم كنت بحاجة لذاك الحضن الذي أراحني من معاناتي وسُهدي وتعبي ..

داوى غربتي الطّويلة، وأزاح عنّي وعثاء الغياب.

أشعرُ بشيءٍ من الرّاحة الآن، فقد عُدتُ أخيرًا..

أتذكّر آخر لقاء جمع بيننا. كنتُ قد أخبرتُك أنّنا ربما لن نلتقي مجددًا، و أنّني مسافرٌ بلا رجعة، و أنّه ورغم صعوبة ذلك عليّ، إلا أنّني لا أنتوي أن أعود. و أنتِ تعرفين الأسباب.

ولم يكُ بإمكاني البقاء أكثر من ذلك. ولكنّك قلتِ لي بنبرةٍ و اثقة:

"ستعود .. لأنه يومًا ما، سيحدث هنا شيء جميل ..

ستشتاقَ للقائنا وستعود يومًا ..

حتمًا ستعود."

كنتُ أستغرب من ثقتك رغم أنّك تعرفين مالا يعرفه غيرُك ..

ولكنّي أبدًا ما شكَّكتُ في حسن تقديرك للأمور.

أعودُ الآن وكلّي شوقٌ لغدٍ أجمل من أمسي البائس ..

أعود وكلّي أملٌ في أنّ لقاءنا سيطول ..

وكم أتمنى ألا ينتهي .. فلا يدركه زمن، ولا ينهيه عُمرٌ أو قدرٌ..

أرى أنك تدركين حجم ذلك الشّوق، فشوقي إليك ماهو إلَّا شوقي إلى نفسي التي فقدتها منذ زمن. كم كانت صعبة سنوات اغترابي عنكِ ..

أتدرين يا حبيبتي كم أنا ممتن لشعوري بالإغتراب ؟

فقد خلق وجعًا أنْسَاني وجعي. لكنّي برأتُ منه الآن.

ربما تجدينني غريبًا بعض الشّيء. إذ أتحدث بلسان العائدين من غياب.

مثل أولئك الذين يُسجنون طويلًا.

يشتاقون للحرّية، وها هم يقطتفونها بلهفة.

أو مثل أولئك المفقودين، في غرق باخرة تحمل أبناء وطني قرب جزيرةِ "بنما"، غير أنني استطعتُ العودة، ولم أمت مثلهم.

حتى أن شكلي يبدو أكبر سنًا ..

ربما بخمس أو حتّى عشر سنوات. أعرف ذلك جيدًا ..

وأعرف أنّه لولا درجة قربك مني ما كنت عرفتني.

لكنّي هكذا .. أشعر بأني كهلٌ مسجونٌ داخل نفسي.

كنت أبحث عن الخلاص في كل شيء من حولي، لكن خذلني كل شيء..

لم يحالفني الحظ في البداية، لكنّي لم أستسلم، وأخذت أبحث من جديد.. لم أفقد الأمل .. ولم تدم حيرتي طويلًا، ولا شقائي.

حينما أطلّت الفرحة من نافذة بعيدة .. وأخذت تقترب منّي،

وتوشك أن تغشاني حتى الذّروة..

إمتلأت نفسي بالسّعادة، وصارت تغمرني غمرًا. تبدلت مخاوفي من القادم، بأمل يملؤه ثقة بأن أقداراً أجمل .. تنتظرنا.

أتيتُكِ مسرعًا .. أريد أن أحكي لك أشياءً كثيرة،

أريد أن أخبرك بكل شيء، دون أن أفوّتَ تفصيلةً صغيرة ..

فالتفاصيل الصغيرة تلك، هي التي تجعل من حكاياتنا قصصًا أجمل.

لا أخفي عنكِ سرًا، أني لا زلتُ قلقًا بعض الشيء.

ولا يزال بداخلي ذلك الخوف الأزليّ من أن السّعادة التي أتحصَّلُ عليها، لن تدوم لي. ولن تركن إليّ طويلًا ..

لكنّي قررتُ أن أتخطّى كل ذلك، فخوفي لم يعد فزّاعةً تصيبني بالجنون ..

صار شيئًا عاديًا .. وسأتغلّب على سلبيتي وتناقضاتي حتمًا ..

سأصنع بيديّ شيئًا يُعجَب به كل من قرأ سيرتي أو سمع عني ..

يخبر أنّني عشت هنا .. كنت يومًا هنا ..أو مررتُ من هنا ..

سأرسل إليك رسالة أخرى، فأنا أعرفُ أنّك لا تمّلين منّي، كما لا أملُّ منكِ.

أحبّ حديثك كثيرًا، وربما سيطول في الغد .. "

طبَّق رسالته ووضعها في المظروف ثم ناولها له.

كان من عادته الهذيان.

يعلم جيرانه أنّه مجنون. يحدّثهم دائمًا عن بلاده التي سيعود إليها يومًا. يحدّثهم عن شروق الشّمس فيها وأنّها لا تشرق من الشّرق كمثل البلاد. بل تخرج من فم البئر الذي هو في وسط مزرعتهم.

كل الذين كانوا يعرفونه هجروه، إلا صديقًا واحدًا كان يشعر بألمه، يفهم حالته ويقدِّر ما مرّ به. منذُ خمسة أعوام فقد زوجته التي أحبها، في حادث.

كانت في طريقها إلى العمل، وكان ذلك في الثامنة صباحًا، تمشي بمحاذاة الرصيف، وإذ بحافلةٍ تحمل ركابًا، فتحيدُ عن مسارها وتصعد إلى الرصيف لتدهسها. إعتصرتها الحافلة وشطرتها نصفين بعد أن سحقت عظام العجز. كانت المسكينة في شهرها الثامن وينتظر أن تضع له مولودته الأولى، والتي اتفقا على أن يسمياها "جوليا".

لكن الحياة لم تمنحهما الفرصة.

عندما أخبره زملاءه في العمل بأمر الحادث، لم يصدّقهم في البداية. ترك ما بيده وركض باتّجاه البيت الذي لم يكن بعيدًا عن مقرّ المصنع الذي يعمل فيه. وصل لمكان الحادث فرآها مشطورة نصفين وحولها بركة من الدّماء. جمَّع المارةُ أمعاءها التي تناثرت، وبعضُها كان عالقًا على قوائم السّيارة الكبيرة التي تحطمت واجهتها تمام.

لم يتمالك نفسه من البكاء، وأخذ يضرب رأسه في الحائط والدماء تسيل منها حتّى فقد الوعي.

نقلوهما في سيّارةٍ واحدة إلى المستشفى القريب.

حجزوه في غرفة العناية المركزة.

الّتشخيص:

- *إنهيار عصبيّ حاد*
- *تجمّع دموي كبير بالمخ*

أجريت له الجراحة وكان صديقه إلى جواره.

أصيب بصدمة أثّرت على إتزانه. كان يمشي في الشّارع يسب المارّة دون سبب فتعتقله الشرطة. تعرض للإعتقال ثلاث مرات، وصديقه كان دائمًا ما يتدخل ليضمنه، ومعه تقريرًا طبيًّا يوضح حالته.

كان يزوره كل ليلة فيجده جالسًا أمام مكتبه وأمامه رزنامة أور اقه التي لا تخلص. يجلس ويتخيل أنه في رحلة إلى الخارج، وحبيبته تنتظره. يكتب لها رسالة لا ينقصها الصدق.

ناوله الرسالة كالمعتاد، ولم ينسَ أن يؤكد عليه أن يضعها صباحًا في أقرب صندوق بريد حتى تصل في المساء.

يحب أن تصلها رسائله باللّيل .. فاللّيل وطن العاشقين.

تناول صديقه الرسالة بالمظروف وهو يومئ مبتسمًا:

"تمامًا مثل كل يوم.. لا تقلق."

يبادله الآخر إبتسامة هادئة ثم يتركه ليدخل إلى غرفته.

يسحب عليه غطاءه ويغطُ في نومٍ عميق.

يُخرج صديقه الرسالة ليقرأها وعيناه تحتشدان بالدّموع.

هكذا ظل صديقه لفترة حتى اعتاد الأمر.

كل ليلة يذهب للإطمئنان عليه، ويؤدي مهمته كساعي بريد.

لكن هذه الليلة حدث شيئًا غريبًا ..

أخبره صديقه بألا يمرّ عليه في الغد، ولم تكن تلك عادته.

كان عادةً ما يؤكد عليه أن يمرّ عليه في اليوم التالي. أو أنه يذهب مباشرة إلى نومه بعد أن يأكل طعامه الذي يحضره له كل ليلة.

لكن هذه المرة كان الأمرٌ مختلفًا.

إرتاب صديقه في الأمر، وسأله عن السّبب فابتسم مُردفًا:

"سأسافر إليها بنفسي. لا داعي لقدومك أنت."

تعجب صاحبه قليلًا، لكنّه لم يُلقِ باعًا للأمر.. ربما كان يهذي كعادته.

أخذ المظروف وخرج بعد أن أغلق الباب خلفه.

في الصباح زاره قلق عجيب. إستيقظ باكرًا جدًا.

هاتفٌ بداخله أراد منه أن يذهب إلى صديقه الآن.

الوقت لا زال باكرًا، فربما يوقظه من نومه.

لكنّه كان لجوجًا، ولم يكُفْ عن إلحاحه. إرتدى سرواله وقميصه ثم خرج يتسكّع حتى بزغت الشمس، فدلف إلى الشّارع الذي يقطن فيه صديقه.

إقترب من البناية التي استأجر فيها صديقُه، الاستوديو الصّغير الذي يعيش فيه، بالطابق الأخير.

وجد سيارة إسعاف و اقفة أمام المبنى، فشعر بالقلق يتزايد في جنباته.

هرول باتّجاه السيارة، وهمّ أن يسأل السائق عن الأمر، لكنّه فوجئ بسيارة الشرطة تقف قريبًا فاستشعر خطرًا ما.

لحظات ونزل الطاقم مسرعًا يحملون صديقه في ملاءة غارقة بالدّماء. ركب معهم السّيارة و انطلقوا إلى المشفى، يُقلّبُ في صديقه الذي بدا شاحبًا شحوب الأموات ..

يهزُّه ولكنّه بلا حراك ..

بعد ساعتين خرج التقرير الطّبي يؤكد الوفاة.

التّشخيص:

■ *نزيف حاد وقطع عرضي بآلة حادة لأوردة اليد اليسرى والفخذين.*

إنتحر صديقه بعد أن قطّع أوردته بشفرة الحلاقة. لم ينقذه أحد.

انزعج أحد الجيران من صوت التَّلفاز المرتفع، والذي كان مصدره الاستوديو الذي يقطنه غريب الأطوار، فصعد وطرق الباب لكن أحدًا لم يُجب.

أبلغ الشّرطة عن حالة إزعاج من المجنون الذي يقطن بالطابق الأخير للبناية رقم ١٤٠٥

شارع ميستل يانج - ميسوري

إنتقلت الشّرطة إلى مكان الحادث وكسروا الباب، فوجدوا "إس. جيه. كارلايل"، غارقًا في دمائه.

بعد معاينة مكان الحادث عثروا على شفرة الحلاقة وعليها بصماته.

"أنا لا أنتظر أكثر من اللازم ..
أنا أعرف أن ما أنتظره سيأتي.
أنا آمنت بذلك ولا شيء يثنيني عمّا آمنتُ به"

على الشّاطئ هناك. ابتاع بيتًا صغيرًا.

كان بيته أشبه بالكوخ المتهدّم الذي كالت له الأمواج لكماتها وكأنها فيلٌ غاضب، يضرب بمؤخرته حائطًا رخوًا فتركت به شروخًا مفزعة..

تركه كما أراد .. ورحل خائبًا،

فاقدًا الأمل في أن يعود صاحبه إلى صوابه .

.لم يعد يشكو كما كان من قبل ..

إلتحف صبرًا غريبًا جعل أصدقاءه يستنكرونه، وكأنّه شخصًا آخر لا يعرفونه .. لكنّه أدهشهم بجموده.

كان فأرًا صغيرًا يخاف الهررة.

يخاف كل شيء ..

لكنّه يحبه.

ذلك الذي هو ساعي البريد.

"إس. جيه. كارلايل"

كانت هذه الورقة ملقاة على أرضية الاستوديو.
أمسك بها صديقه يقرأها بألم.

كانت كلماته تشرح كل شيء ..

رفع رأسه في هدوء ناظرًا إلى السّماء .. برقت عيناه، ولمع من ورائهما ذلك السّائل السّحريّ.

لم يجدْ صديقه .. وحيدًا كما أراد ..

كان من الصعب عليه أن يرى صديق عمره وقد آل به الحال إلى ذلك ..

تحول إلى شيء أشبه بالدمية .. شحب وجهه، ونحل جسده ..

ولم تعد تفارق خياله، كلماتُ صديقِهِ في تلك الليلة:

"سأسافر إليها بنفسي. لا داعي لقدومك أنت."

****

حالة وفاة

هناك على أحد الأسرّة في المستشفى المركزي، إتّكأ أحد المصابين في القصف الذي أسقط البناية رقم ١١٣ بحيّ العربي، وسط حلب - التي يسكن فيها.

رجل فقد كل شيء إلا ذاكرته.

بعد مرور ليلتين، أفاق من الغيبوبة. دخلت الممرّضة فوجدته قد أزال قناع التّنفس عن وجهه، ثم سحب أنبوب التّغذية المتّصل بوريده ليترك مكانه ينزف دونما اكتراث.

فزعت الممرّضة وأسرعت تنادي الطبيبة التي وقفت أمامه صامتة حدّقت فيه لبرهة، ثم سألته دون أن تُقدم على فعل شيء:

"هل أنت بخير؟"

نظر إليها بعينين تشعَّان حزنًا، ولم يرد.

حاولت أن ترسم على شفتيها إبتسامة.

بدت شاحبة للغاية وهي تمسك بقطعةٍ من الشّاش المبطّن بالقطن وتغرقه بالمحلول المعقّم، ثم تضعه على مكان الفتحة. مرّت على بعض الخدوش في بطنه، وصدره فعقمتها ثمّ شدّتها باللّاصق. كان مستسلمًا تمامًا.

كان الرجل ذو لحيةٍ خفيفة وشارب كثّ.

عيناه خضروان يغرق في خضارهما الحصاد، وكتفاه عريضان.

رأسه ملفوفٌ بالشّاش الذي غطى أغلب جبهته.

صدره الأبيض و بشرته ذات الملمس النّاعم لا توحي بقوّته، لكن بطنه المشدود وعضلاته المقسّمة تقول عكس ذلك.

تجاهل وجودها ثم أسند ذراعيه إلى جواره، في استسلام.

نظر برأسه يتطلّع عبر النّافذة إلى الشّارع الذي يضجُّ بالمارّة في مثل هذا الوقت.

رغم كل شيء تبدو حلب رائعة.

رغم هذا الدّمار الذي غطى بعض أسواقها التّجارية.

لازال أهلها يتمسّكون بالحياة.

لازالوا يمارسون أعمالهم بهمة.

إشتهر أهلُ هذه المدينة بالتجارة منذ القدم، عرفهم الأتراك والمصريون في القرن الماضي، تجارًا لأفخر الأقمشة والتوابل.

لازالت المدينة الصبية تتمسك بفتنتها وفتوتها، ولا تريد أن يقتنصها منها الطغاة.

تأمَّل السّاحة البعيدة. تلك التي اعتاد على أن يأخذ طفلتيه إليها، ويقف فيها منتظرًا الحافلة التي تأخذهم إلى مدرستهم في رياض الصّالحين.

شرد يسترجع ما مرّ بتلك الليلة المشئومة ..

كان عائدًا من عمله في حوالي الثانية ظهرًا.

بمجرد دخوله إلى البناية، وقبل أن يصعد درجات السّلم إلى الطّابق الثّاني - حيث شقته التي يعيش فيها مع زوجته، طفلتيه، أمّه، وأخته الصّغيرة – سمع صوت دويّ هائل بالخلف.

التفت ليرى ما يحدث، ثم خرج إلى الشّارع فشاهد القذيفة الأولى وهي تنسف الباحة الخلفية للبناية المجاورة.

ألقى ما بيديه وهمّ ليركض مُسرعًا إلى الأعلى ليحذر أهل بيته، فباغته ذلك الصوت المدمّر الذي أعقبه انهيار الدّرج الذي كان عليه.

أصوات الصّراخ كانت تتعالى من حوله، وفي ثوان معدودة انهار المبنى.

دفعه انهيار الدّرج إلى التّراجع حتّى اصطدم بأحد الأعمدة الإسمنتية التي كانت تسند البيت. كاد يسقط على رأسه، وأصاب كتفه وذراعه.

شعر بالألم يعتصر نصفه الأعلى، وحاول تخليص نفسه لكن السّقف باغته، وتهاوى فوقه.

نزلت إحدى القطع على رأسه فشجتها ولم يشعر بشيء ..

قبل يومين..

"أرجوك. يجب أن تأمّن لنا التذاكر. الوضع أصبح صعبًا، وتجّار السّوق السّوداء كل يوم يبيعون في النّاس ويشترون.

تأشيرة إلى مصر أو إلى تركيا أو إلى أي مكان.

لو تكلّف الأمر أن نذهب نازحين فلنذهب. لا تكابر."

إنهمك في تقليم أظافره، يضعُ قدمًا فوق الأخرى، في غرفة نومهما دون أن يُعِرْهَا انتباهًا.

جثت على ركبتيها أمامه وتوسلت:

"أرجوك افعل شيئًا ولا تجلس هكذا ..

القصف لن يتوقّف وسيأتي دورنا الشّهر القادم أو الذي يليه. لماذا تصرّ على تلك السّلبية؟ من أين لك بكلّ هذا البرود.؟

"سليم" .. أرجوك لأجل أولادنا .. لأجل أمّك وأختك.

خذ هذا الحليّ، بِعه وادفع لهم "الألف دولار"، ولنهاجر إلى مصر.

أختي تقول أنّ الوضع مستقر، والبيوت إيجارها معتدل، وهناك فرصة جيدة للتّجارة والعمل."

لنصف ساعة وربما أكثر، ظلت تتوسّل إليه أن يهتم دون جدوى. انتهى من تقليم أظافره فأمسك بالجريدة يطالعها، وهو يتجاهلها تمامًا، ولا ينظر إليها حتى جعلها تشعر بالجنون.

إستشاطت غضبًا وصرخت في وجهه، تنعته بالبرود، فصفعها بعنفٍ فكسر فكّها. سقطت على الأرض تنزف. ثم اعتدلت وقامت من رقادها خرجت من الغرفة وهي تشهق بالبكاء.

دخلت أمّه تلومه على فعله، تبكي وتستعطفه أن يو افق على السفر، لكنه لم ينطق، أو يرد لها جو ابًا.

ما الذي يحدث .. لماذ يريد الجميع الخروج من البلد؟

ولمن سنتركه إذن طالما أن الشّعب كلّه نازح؟

على الأقل نحن هنا في أمان، ولن نصاب بأذى.

لماذا لا يكفّون عن تلك النغمة؟

صفع الباب خلفه وخرج.

قبل يوم ..

"لماذا لا نسافر يا أمّي، ونتركه هنا طالما أنّه يريد البقاء؟

الوضع سيء و أنت تعلمين. معظم الأولاد تركوا مدارسهم. لا أحد يذهب ويصرُّهو كلّ يوم أن يأخذ "سما" و"أفنان" إلى المدرسة، وهو يعلم تمامًا أنْ لّا أحد هناك. لا أحد من المعلمين يذهب حتى.

"لا أعلم يا ابنتي .. أخوكِ "سليم" وتعرفينه جيًدا. لن يرحل ويترك البلد. عنيد ولا يمكن أن نجبره على شيء لا يرغب به. و أنا لا أستطيع أن أرحل دونه. أنا معك أريد أن نخرج من هنا قبل أن تتأزم الأمور، فالجميع يرى أن القادم أصعب. والطوفان قادم لا محالة .. وسيغرق الجميع. أدعو الله أن يهديك يا بنيّ."

"لكنّ هذا غباء يا أمّي، بل وجريمة في حقك، وحق وبناته، وزوجته. أما أنا، فلن أسمح له. لقد رتبتُ الأمر.. سأسافر.

لقد دبرتُ خمسمائة ألف ليرة ويمكنني أن أتدبر بهم تأشيرة دخول لمصر."

"يا بنيتي لا أدري ما أقول لك. لكن أخاكِ لو علم بالأمر سيغضب ولن يسمح لك بذلك."

"من قال هذا؟ سأهرب إذن. ولن يعلم إلا بعد وصولي إلى مصر."

"أخاف عليكِ يا ابنتي .. تسافرين وحدك !!"

"يا أمّي السّفر أم البقاء هنا والهلاك. ثمّ أني اتفقتُ مع "زينة"، وسنسافر سويًّا."

"وهل يعلم أهلها أنها ستسافر أيضًا؟"

"إنّهم معنا في الرحلة يا أمّي. لذلك أرجوكِ تعالي معنا.

بصراحة .. لقد اتفقتُ مع "لينا" زوجة أخي على أن نمُرّ غدًا ظهرًا دون علمه على المدرسة ونأخذ "سما" و"أفنان" ونسافر. أنا فقط خبأتُ الأمر عنكِ حتى لا تقولي له. أرجوكِ يا أمّي. كل شيء مرتب وجاهز.. والخمسمائة ألف تكفينا نحن الخمسة.

المعلم "أبو سيف" مو افق وليس لديه مانع أن نسافر معهم وسيتكفّل هو بالباقي. وفي مصر سأعمل وأسدد له. الرجل شهم و مو افق يا أمّي. أرجوكِ .. يجب أن تأتي معنا."

"مستحيل يا ابنتي .. أموت قهرًا على أخوكِ ..

إنتظري .. سأتحدّث معه الليلة وإن شاء الله سيقتنع بفكرة السّفر

هذه المرّة، فلم يعد أمامنا وقت. يجب أن نرحل من هنا قبل أن تطالنا الحرب.

***

في المساء ..

"سليم" يا ولدي .. الله يرضى عليك. اسمع كلام أمّك تكسب رضاها.

يجب أن نترك حلب وسوريا كلها، ونهاجر إلى أيّ مكان.

الأمور تتأزم أكثر كل يوم. الغذاء ينقص والأسعار صارت أضعاف أضعاف الشّهر الماضي. والتّجار ذئاب مسعورة لا تشبع.

يا ولدي لم يعد يكفينا الرّاتب.

الوديعة التي تركها والدك، ونصرف منها قاربت على النفاذ. و أنت بنفسك، منذ أكثر من سبعة أشهر لم تقبض سوى ربع الراتب. ألا يثير حفيظتك ذلك كله؟. يا ولدي دعنا نهاجر، فأرض الله واسعة.

نعم بلادنا وعزيزة على قلوبنا، لكن العمر غالي يا ولدي .. الحياة نعمة غالية.

بناتك صغار ولهم حقّ عليك.

من حقّهم أن يعيشوا طفولتهم غير مهدّدين، بدلًا من التّشرد والضّياع لا سمح

الله، لو جرى لك حادث.

من سيعولنا ويصرف علينا. من سواك يا ولدي؟"

"يا أمّي باختصار شديد لن أسافر. ولن يسافر أحد منكم. لا تعودي وتفتحي هذا الموضوع معي مرّةً ثانية.

إنتهى الأمر. لن أترك سوريا وأرحل مثل الجبناء.

لن أتركها يعني لن أتركها. ثم إن الأمور هنا مستقرة في حلب.

لماذا تتوقّعون السّوء دائمًا؟

هكذا أنتم .. مُضلَّلين، ومتشائمين دائمًا.

أووووف .. مللت .. مللت."

خرج إلى الشّارع يتفقّد أحوال النّاس.

السّوق ممتلئ. والمقهى مكتظة بالمعلّمين والشّباب.

أخذ جولة في الشّوراع القريبة.

الأمور لا تبدو بالسّوء الذي تتحدث عنه أمّي زوجتي.

يا الله .. كيف أترك كل هذا الجمال وأرحل .. !!

يا حلب .. ما أحلاكِ يا صبية الصبايا.

***

"يبدو أن بالك مشغول؟

هل تذكر من أنت؟؟ هل تعرف من أين جاءوا بك يا سيد ..."

لم يُحِلْ نَظرَه عن النّافذة. ظلّت تتحرك حول السّرير، وقد حارها أمر الرجل. سارت نحو النافذة. وقفت أمامها معطيةً ظهرها له، ثم التفتت إليه: "لكن لم تقـ...."

تلاقت العينان وتسمّرت الطبيبة حين رأت حشدًا من الدّموع، يتجمّع في عينيه الجامدتين. بدأت تنزل قطرات من تلك العينين دون أن يتحرك الجفن. دون أن ترمش. تسيل دموعه لا إراديًا وهو كما هو، لا يبعد نظره عن النّافذة. حتّى بعد أن حجبت الشّارع بقامتها الممشوقة. لم يشح بنظره. وكأنّه يرى عبر جسدها.

إقتربت منه تتفقده: "هل أنت بخير..؟؟"

لم يُجب. أمسكت يديه تتفقّد النّبض ثم وضعت سماعتها على صدره.

أنفاسه بدأت تتناقص.

ركضت تصرخ، وتنادي الممرضات:

"جهازالصدمات بسرررررعة ...

"نسرين" .. "هند" .. "تغريييد" ......"

بدأ لون جلده يحتال إلى الأزرق، مكان أنبوب التغذية تقلص وأصبح مزرقًا بشدة. ضغطه ينخفض بسرعة.

سحبت قدميه للأسفل وأرقدته، ثم سلطت قطبيّ الجهاز، وصعقته ..

لم يستجب النبض .. شحنت الجهازبسرعة .. وبجهد أعلى ..

رفعت التّيارثم صعقت مرّة ثانية .. لم يستجب النبض أيضًا ..

شحَنَتْ الجهاز مرّة ثالثة، وهي ترفع الجهد إلى أقصى درجة، ثم قرَّبت الأقطاب وصعقت، لكن نبضه لم يستجب.

ظلت تصعقه حتى تفحم جلده، وصوت صافرة الجهاز تخبرها أنّه لا فائدة من كل ذلك. النبض لن يستجبْ أبدًا ..

دخل في غيبوبة ..

يسمع أصو اتًا غريبة ..

لا يعرف هل هي وحوش أم شياطين ..

من بينها استطاع أن يميز بعض الأصوات المألوفة ..

"سلييييييييممممم" ...

هنا .. تعاااااااال ..

لا تخف ..

أهرب .. أركض ...

أنجُ بنفسك ..

يتمتم:

أمّي .. أختي .. "لينا" .. "سما" .... "أفنان" ..

أمّي

أختي ....

"سما" .. بابا ..

في لحظات .. مرّت حياته أمام عينيه، وتذكّر أيّام طفولته ..

يوم مات أبيه وأخذه خاله ليربيه في بيت جدّه ..

يوم وفاة جدّه ..

أمّه حين فصلوها من العمل ..

يوم وفاة خاله ..

يوم زواجه بـ" لينا " .. حبيبة القلب وزميلته في الجامعة.

يوم ولادة توأمه .. "سما" .. و"أفنان" ..

أغمض عينيه ليرتاح .. لم يستطع أن يتحمّل الصدمة.

علا صوت صفير جهاز المونيتور المتّصل بإصبعه مُعلنًا توقف النبض.

"المريض فارق الحياة يا دكتورة."

تشخيص الحالة - ٧٠٩ مستشفى حلب الجامعي:

الإسم/ سليم حسن المعلوف صدقي

السّن / ٣٥ سنة

سبب الوفاة:

- *هبوط حاد ومفاجئ في الدورة الدموية.*
- *توقف في وظائف التنفس والكلى.*

القاهرة – مدينة ٦ أكتوبر

جمهورية مصر العربية

٢٠١٦

جلست ثلاث سيّدات وفتاتان وقد بدت عليهن علامات التّعب والإرهاق من جرّاء السّفر، في غرفة استقبال الفندق المتواضع.

قامت "زهراء"، تكمل إجراءات الدّخول مع موظفي الإستقبال.

هناك .. في أحد جوانب القاعة استقر جهاز تلفاز كبير بشاشة مسطّحة عملاقة يعرض صورًا لضحايا قصف الأمس.

أنصتت السّيدة الكبيرة، إلى صوت المذيع، وهو يتابع بنبرة ملأها الحزن:

"هذا وقد صرّح مصدر مسؤول للتلفزيون السّوري عن أنّ القصف الذي أسفر عن سقوط أكثر من سبعين قتيلًا وثلاثمائة جريح، بحلب، أمس كان عن طريق الخطأ. ولا صحّة لما زعمه البعض بأن الطائرات كانت تلقي صور ايخَ مِظليّة شديدة الإنفجار.

وأشار المصدر إلى أن جميع المصابين استقبلتهم مستشفيات "حلب"، وريفها، وحالاتهم متفاوتة ما بين الخطيرة جدًا والخطيرة.

في الوقت الذي لم يسفر القصف الذي وقع على "إدلب" و"الرَّقة" بعدها بحوالي نصف الساعة عن سقوط ضحايا.

بينما امتنع المسؤول، عن التّصديق على أي قرارات جديدة، تخصّ أُسَر الضحايا من القتلى أو المصابين.

***

أجمل من الوردة

"هوني عليكِ"

التقت عيناهما، وجَمُدَا للحظة ..

"هوني عليكِ" ..

ربّت على كتفها، ثم لامس رأسها بيده ..

لم يكد يفعل ذلك حتّى احتشدت عيناها الجامدتين بالدّموع، ثم انفجرت بالبكاء. وكأنّه أشعل فتيل قنبلة حارقة بكلمة واحدة.

بركان من نار في صدرها، وسيل من الدّموع راح يملؤ المقل، ويغرقها.

في لحظة أشبه بالعاصفة بعد السّكون ..

ظلّت كثيرًا تتظاهر بالجمود، والقوّة. أنهكها ما في صدرها كثيرًا، وأحزنها أنْ بَانَ ضعفُها أمامَه.

لوهلةٍ بدت وكأنّها عصفورٌ يرتعش بعد سقوطه في بركة مياه، ثم لملمت جراحها الغائرة سريعًا، وتبدلت نظرتُها فجأة.

نظرت إليه شذرًا، فأحسَّ بشيءٍ من الضّيق، لإصرارها على أن تتقمّص دور الجامدة ..

شعر بالغربة والوحشة حينما دقّق النّظر في عينها التي عادت جامدة وكأنّها بئرٌ قديمٌ جافٌ، ومتشقّق.

شعر بالحزن الشّديد، و انتفض قلبه الشّفيق على تلك العينين الجميلتين اللتين أذبلهما الحزن.
ظلّت باردةً لفترةٍ من الزّمن، وظلّ يصارع عواطفه المريضة. حزنه عليها يكاد يقتلع قلبه من صدره، يحبها حبًا شديدًا لا مفر منه.
أما هي فلم تذق طعم الحب أبدًا ..
لكنّها كانت تشعر معه براحة غريبة ..

"دعنا نتّفق أن ما ترتكبه حماقة. و أنا لا أريد مزيدًا من الحماقات.
مارس شعوذتك بعيدًا عني .. إهجرني إن شئت .. لكن لا تعاملني كحمقاء حافية، تقرقع أصابعها من الخوف ..
أنت تريدني، وتعرف أنّك لن تصل إليّ ..
لا تقطع حبلًا بيني وبينك بدافع الكبرياء، والكرامة ..
لنكن أصدقاء وكفى. لماذا تصرُّ على الخوض في تجارب سخيفة؟
هذه حماقة، أنا أسميها حماقة ..
أما أنت فسمِّها كيف شئت ..

"حينما تغالبين ذلك الحزن، أنا أقدّر ذلك ..
ولكن حينما تلبسين ثوبًا لا يناسبك، وتبدين بصورةٍ زائفةٍ تُغايرُ من حقيقتك، فهذا ما لا أحبه ..
أنتِ تحتاجين إليّ كما أحتاجك، وربما أكثر..
أشعر بذلك، ولم يخدعني حدسي من قبل قَطُّ.
يمكننا أن نحاول، صدقيني ..
لا تكابري وتنعزلي عنّي بقسوة ..
أنتِ لا تقسين عليّ فقط، أنت تقسين على نفسك أيضًا ..

تعالِ نبدأ من جديد، وبصورة أفضل ..
أنا أصارحك بكل شيء، و أنت تفرغين ما في صدرك.
قاسميني حزنك، يهون عليكِ، ولا تتردّدي في الوثوق بي ..
يمكنك أن تفعلي، و أنت تعرفين ذلك حقّ المعرفة .. سأكون لكِ كلّ شيء ..

"هه ..

لا أريد الشّفقة من جنسك.. لا أريد ذلك ..

أنتم لا تعرفون شيئًا عن الحب، لا تعرفون شيئًا عن المعاناة. أنا أيضًا لا أعرف شيئًا عن الحب، ولا أريد أن أعرف ..

أنا طريدةُ يأسٍ داعرٍ، وألمٍ لا يرحم ..

أنا لم أملك يومًا أن أعيش لنفسي، ولم أعد أريد ذلك الآن ..

نعم .. أشعر كأنّي خرقة بالية، كقطعة صفيح صدئة مترديّة إن شئت القول، لكن أرجوك لا تستثيرني وتحاول العبث بمشاعري.

لا تنسى أنني كما ارتضيت صداقتك بالأمس، فيمكنني تمزيق ذلك بسهولة الآن. لا تدخل معي في رهان خاسر، فأنت تعرفني ..

لا تستخفَّ بعقلي وتخبرني بأنّك تحبّني ..

هذا غير صحيح، فأنا ككائن لطيف، أثرت شفقتك، ربما، فانحنيت تربّت على جلده الخشن، علّك تزيل ما به من ندبات، ثمّ تستصلحه لمتعتك ..

أنت مثلهم تمامًا، ولا شيء فيك يختلف عنهم.

"هل هذا ما أبدو عليه الآن ؟؟ ما كلّ هذه القسوة ؟؟
لِمَ أنت متحاملةٌ عليّ إلى هذه الدّرجة .. ؟؟
ليتني أعرف سرّ معاناتِك ..
ما الذي كابدتِه ليصل بكِ الحالُ إلى هذه الدّرجة من الحنق والقنوط؟
أنا أشفق عليكِ حقًا، ولكن ليس كما تظنّين .. أنا أشفق عليك من نفسك .. لا أريد أن أراكِ تؤذينها .. تقتلين ما فيها من جمال .. لا أريد أن تتنمّري على أنوثتك، فأنت مرهفة المشاعر.. عاطفية لأبعد الحدود، و أنا على ثقة.
أنتِ خر افيّة الحسّ.
لمستُ ذلك حين رأيت نهر الدّموع، وهو يتفجر من عينيك..
ومهما حاولتِ أن تنفيَ، فأنا شاهدُ الإثباتِ لنفسي ..
أنا لست مثلك، لا أعتقد أن الحبّ ضعف ..
كرجل .. أود أن أحتضِنُكِ بشدّة، حتّى وإن زرعتِ بصدري أجرانًا من الأشواك ..
لا يهمّني ما ستفعلين بي .. لكنّي على ثقة بأنّكِ ستستسلمين.

وكأنّه يخبرها بما سيفعله ..
إحتضنها بشدّة، وزفرت للحظة ..
ثمّ استسلمت، وأغرقت كتفه بالدّموع.

راحت تنساب وكأنّ أرضًا في أشدّ الإشتياق لقطرات المطر، رُوَتْ بفيض.

راحت تداوي جدابتها وتحيلها إلى خضار ..
علا شهيقها، فراح يهدأ من روعها ويطمئنها ..

سكنت روحها، واستسلمت لقدرٍ، لطالما، أرادت أن تُقصِيهِ عنها،
ولكن .. شاء القدر دون حولٍ منها ..
"كيف أنا .. كيف أبدو الآن ؟"

إبتسم بحنو:
"أجمل من الوردة"

***

ياسمين

فتاة في أوائل العشرينات من عمرها ..
هاجرت مع أبيها وأمّها الى استراليا، إبّان القصف الإسرائيلي للبنان.

تحمل في شخصيتها الكثير من الغموض.
والدها عراقي، وأمّها مصرية ..
التقيا بدمشق وتزوجا، فولدت هناك، ثم انتقلت مع أبيها وأمّها حينما بلغت الخامسة إلى بيروت.
إمتزجت شخصيتها بكلّ أطياف العروبة، وهي تحمل من الجنسيات ثلاث :
عراقية للأب
مصرية للأم..
سورية للمولد.
وإن كانت غيررسمية. إلا أنّها تحمل كل هذه الملامح معها.

***

(١)

نزلت إلى الشّارع تستكشف المنطقة المحيطة.

قاموا باستئجار منزل في شارع بيرمونت. وكان الحال متيسرًا إلى حدّ ما.

لكن استئجار منزل كهذا في (سيدني)، وفي شارع بيرمونت، على وجه التّحديد يكلفهما الكثير.

فوالد "ياسمين" وأمّها كذلك مهندسين معماريين في شركة نايزال جلوبال، وقد انتقلا إلى فرع الشركة بـ (سيدني) بعد الحرب في لبنان.

كانت "ياسمين" -ابنة الثلاثة وعشرين عامًا- رغم انطوائيتها، شخصيةً متمرّدةً وقويّة، ورغم أنّها عاشت ما يقرب من الثّمانية عشر عامًا في لبنان، إلا أنها لم تتأثر بطبيعة هذا البلد التي تبثُّ البهجة في كل شيء.

فأكثر ما يميزُ الفتاة اللّبنانية، الانطلاق .. والمرح ..

لكنّها لم تكن كذلك. فقد كانت تشعر بوحدةٍ، وحنينٍ غريبٍ إلى وطنٍ غير موجود هنا .. لم ترَه أو تعرفه.

فهي كالممزقة .. لا هي عراقيّة ولا هي مصريّة.

وإن كانت تحمل في جيناتها حبًّا شديدًا لهما.

طفولتها التي قضتها في شام سوريا، كان أكثر ما أثَّرَ فيها. لكنّها سرعان ما انتقلت قبل التحاقها بالمدرسة.

فلم تعرف بالتحديد الى أي وطنٍ تنتمي.

ربما كان هذا ما ساعدها على التأقلم سريعًا في أُستراليا.
كانت تعشق الخضرة والغابات، وهو متوفر، وبكثرة في (سيدني) و(ملبورن).

(٢)

- أهلا..
  - مرحبًا بك
- لم أتوقع أن أجد عربيًّا واحدًا هنا بالذّات. فقد أغلقت أُستراليا باب الهجرة منذ عدّة اعوام.
  - لقد جئتُ مع والديَّ، لأنهما يعملان بشركة كنديّة ولها أفرع في كل البلدان.
- أها .. أهلًا بكِ مرة أخرى .. أتمنّى أن تتأقلمي سريعًا هنا. يمكنك الإعتماد عليّ إن صادفتك مشكلة.
  - شكرًا جزيلًا

إنتهى اللقاء الأول لهما. كان لقاءً باردًا. لكنّه لم يكن مقصودًا منها أو منه. عادةً ما يكون أوّل لقاء كذلك.
عادت "ياسمين" إلى المنزل تحمل دفاترها، ولم تفكر كثيرًا في هذا اللقاء السّريع، فهي دائمًا غير مهتمّة، وتشعر باللامبالاة.

(٣)

في صباح اليوم التّالي، ذهبت إلى الجامعة، والتقت إحدى الزميلات.
اسمها "ماجدولين". هي ليست من سكان أستراليا الأصليين، أمّها لبنانية من المهاجرين وتعيش مع أمّها وخالها في مدينة (ملبورن). تأتي يومًا واحدًا في الأسبوع إلى (سيدني) لتتابع ما فاتها من دروس .. وقد وجدت ضالّتها في

ياسمين.
لم تكن تتقن العربيّة، لكنها تتحدثها، وإن كانت بلكنة ركيكة، لكنّها مفهومة على أيّة حال. خصوصًا إذا بذَل السّامعُ جهدًا.
وكانت "ماجدولين" فتاة جميلة إلى أبعد الحدود.
شقراء .. ذات عينين خضراوين، وشعر كسلاسل الذّهب. ولا تحمل أيّة ملامح عربية.
أخذت كل ملامح والدها الاسترالي، الذي مات بينما كانت رضيعة.
تقرّبت من "ياسمين"، وعلى غير عادتها، تقربت منها "ياسمين" أيضًا، وصارتا صديقتين ..
كانت "ياسمين" سببًا في أن تستأجر "ماجدولين" بيتًا في شارع بييت. أحد أكبر شوارع (سيدني) لتكمل دراستها بعيدًا عن أمّها وخالها.
لكن للحقيقة، لم تكن "ياسمين" السّبب الوحيد الذي جعل "ماجدولين" تقرّر الاقامة في (سيدني)، وبالقرب من جامعة ماكويري.
كان هناك سببًا آخر..

(٤)

شعرت "ياسمين" بأنّ "ماجدولين" تُكِنُّ لـ"منذر" شيئًا، وبات جليًا واضحًا من تلك النّظرات الخاطفة التي ترمقُه بها، أثناء المحاضرة.
لم تمر أيام قليلة، حتى صارحتها "ماجدولين" بحقيقة مشاعرها تجاه "منذر"، وما استقرَّ له، في قلبها، من حب. رأت فيها "ياسمين" العاشقة المحبة. كانت عيناها تحكي عن "منذر" بحبّ، كلما ساق الحديثُ سيرتَه أو لُفظ اسمُه صُدفةً أمامهما. وكانت "ياسمين"، قد بدأت مشاعرها تحبو إلى صاحب ذلك القلب النّقي الطّيب.
هذا الشّاب الليبي .. الذي لم يدّخر جهدًا، إلا وبذله، ليشعرها بشيءٍ من الاطمئنان، الراحة، السّعادة .. والحب.

بذل كلّ ما في وسعه ليثبت لها أنّه يحبها.
حينما مرض والدها .. كان أوّل من وقف بجوارها،
وأوّل من مدَّ يد العون.
وحين احتاج زراعة كلية، كان "منذر" أول المتقدمين.
وحينما تكلّفت العمليّة الشّيء الكثيرلم يتردّد للحظة.
باع مطعمه الصّغير، والذي لا يملك من حطام الدنيا غيره، ليخرج والدها سليمًا معافى. كلّ شيء فعله جعلها تحبّه.
والآن تواجه إختبارًا أقسى، من مرض والدها. شعرت بدوار شديد.
أحسّت بها "ماجدولين": "يجب أن تذهبي للطبيب عزيزتي.
لقد زاد الوضع عن حدّه. وهذا الصّداع الذي يلازمك ليس أمرًا عرضيًّا.
همّت أن تقول لها: "لا.. سأكون بخير....."
فسقطت فاقدةً الوعي. حملها "منذر" و"ماجدولين" إلى عيادة الجامعة،
وعُرضت على الطبيب الذي طلب نقلها فورًا إلى المستشفى.
وهناك .. تم عمل أشعة مقطعية للمخ وبعض الفحوصات التي جاءت نتيجتها " إشتباه في ورم". كان تشخيصًا مبدئيًا.
تم نقلها بسرعة إلى مركز متخصص لعلاج الأورام بـ(سيدني).

<u>بعد يومين ..</u>

ظهرت نتيجة المسح الذري، والنتيجة جد قاسية..
ورم بالمخ .. واستئصاله قد يُعرِّضُها للموت ..
صدمه الخبر..
كان يتمنى لو أنّها أُصيبت بأيّ شيء غير ذلك.
كان على استعداد، لأن ينتزع قلبه من بين أضلعه، ويضعه في صدرها، إن كان في ذلك سبيلًا لإنقاذها.

(٥)

"كنت أعرف أن ذلك سيحدث. كم أنتِ قاسية على نفسك

"لم أشأ أن أُثقل على أبي المريض. وأمّي قد يقتلها ذلك إن عرفت."

ثم قامت من الفراش تستند عليه: "لقد أصبحت بخير الآن."

"بخير..!! أنتِ واهمة ... تموتين وتقولين أنّك بخير." قال "منذر" بغضب

" أرجوك .. لا أريد أن يعلم والداي. "

"لكِ ما طلبتِه." قال مستسلمًا.

أطرقت برأسها ثم رفعت عينيها لتواجه نظراته الحانية:

"أريدك أن تعلم شيئًا آخر.. "ماجدولين" تحبّك."

في هذه اللحظة كانت "ماجدولين" تعبر الممر المؤدي للجناح الذي توجد به غرفة "ياسمين" فسمعت كلمتها، فتسمرت في مكانها.

"ولكن ... ألا تعلمين أني أحبّكِ أنتِ ؟"

"أنت لا تعرف شيئًا ،، إنها تحبّك بجنون."

" ولكن ماذا عنّي ؟؟ ماذا عنّك أنتِ أيضًا؟؟

ما جعلني أصبر على كل هذه الآلام غير أنّي أشعر في قرارة نفسي بأنّ هناك شيئًا تكنينه لي ..أخبريني..

هل ما أشعر به محض وهم؟"

"لا يهم الآن.."

"بل يهمّني أكثر ممّا تتخيّلين."

"منذر" .. أرجوك. أشعر بالألم يعتصرني كلّما تذكّرت "ماجدولين"، كلّما رأيتُ في عينيها نظرات الحب و انتظار كلمةٍ أو لفتةٍ منك. إنها تحبّك، ولا تستطيع الحياة بدونك. أما أنا..

" أمّا أنتِ ماذا ... ألا تحبينني؟؟"

"وماذا يفيدك إن علمت؟ هل سينفعك أن تحبك امرأة ميتة؟ لم يتبقَّ لها غير أيّام، شهور معدودة .. أنفاس معدودة؟

أنا غير مستعدة لأن أقضيها في حبّك. أوصيك خيرًا برفيقتي الوحيدة .. أوصيك خيرًا بـ"ماجدولين".

تسربت دمعة من عين "منذر" وهمَّ بالخروج، لكنّه التفت ليجد عينيها قد اغرورقتا بالدّموع. إحتضنها بشدة وهي تشهق بالبكاء:

"أحبّك ولكن ماذا يفيد الآن.. ماذا سيجدي..لن أكسب شيئًا غير أنّي سأخسرُ، أعزّ صديقة .. إن صارحتك بحبّي فلن تبقَى لي..

أريدها أن تتذكّرني بعد موتي.. أريدها سعيدة ..

أرجوك "منذر"، اجعلها سعيدة من أجلي ..

بكى "منذر" بحرقة، ودخلت "ماجدولين" ليكتمل المشهد الموجع ..

كانت الدّموع تشقّ الخدود كما تشقّ المياه أرضًا، شديدة العطش، وشديدة السّواد. الكلّ يبكي بحرقة ،،

" سامحيني يا "ماجدولين"..

قالتها ياسمين بصوت أشبه بالنحيب، وهي تبكي من ألم الحزن ..

وألم الجرح .. وألم المرض .. وألم الفراق .. وألم الغربة ..

وكأن آلام العالم كلها قد اجتمعت في قلبها الرّقيق.

إحتضنتها "ماجدولين" وهي تنظر إلى "منذر" باكية متوسّلة أن يسكتها.

***

(٦)

بعد أسابيع ..

يسافر الجثمان مع الأبوين إلى (سوريا) .. الى (دمشق) .. حيث الطفولة والمهد.

دُفنت حيث المكان الذي شهد بسمتها الضآلة.

سافر الصديقان معهما ..

إختلطت الدّموع والآلام..

وتفرّق الجميع ..

لم يجمعهم سوى ذكرى ياسمين

طاهرة القلب والروح..

تمت

مارثا

الفصل الأول

لا أعرف يا صديقتي ما الذي جاء بك إليّ في تلك اللّيلة.

كنتُ على أهبّة الإستعداد للمغادرة، ولكن شيئًا ما قبض على يديّ وشدّ أقدامي إلى الأرض. حتّى أن أحد الصّبية اختطف حقيبتي وركض مبتعدًا ولم أجرؤ على مطاردته وإعادتها. فشلت في الحفاظ عليها وكأنّني عاجز خائر القوى.

ها أنا ذا يا "مارثا" .. يا ابنة الدّير، أقف مذهولًا في محطة القطار، أراقب السّماء.

أُحدّق في وجوه الرّاحلين هل أجدني بينهم!!

أبحث عن وجهك في غبار العائدين.

لا أحد يشبهنا في هذا المكان.

أترنّح وأكاد أسقط، لتمسك بيدي عجوز تشبه أمّك "جوزفيلدا" تلك العجوز الطّيبة التي استحالت إلى ناقمةٍ كبيرةٍ عليّ لمّا علمت بقصتنا.

آهٍ يا "مارثا".. كم أفتقد طعم الخبز من يد تلك السّيدة.

كم أتوق إلى تلك الطّاحونة التي التقيتُك عندها أوّل مرة.

كنتِ تحملين جوالًا من القمح وآخر من الشّعير، وكانا أثقل من وزنك. كنملةٍ كنتِ، تحمل حبتيّ أرزٍ، وقد إختفت تحتهما تمامًا.

أشفقتُ عليك وحملتهم عنك وكلُكِ خجل، فشكرتني ودعوتني إلى داركم.

عرفتِ بأنّي عربيٌّ مسلمٌ، ولم تنفري منّي. قلتِ لي بوضوح:
لقد كان "لوركا" يقول للأسرةِ التي يعيش معها أنّه سليل أسرةٍ عربيّة عريقةٍ وكريمة، ولكم وددت أنْ أعرفكم عن قرب.
ضحكتُ وقلتُ لك: "هل تحبين "لوركا" ؟"
قلتِ في غنج بالغ: "إنّه فتى أحلامي."
قلت: "ولكنّك لست فتاة أحلامه."
فقلتِ: "وما أدراك؟."
قلتُ لك: "إنّكِ لا تشبهين "ماريانا."
قلتِ لي: "وهل تعرف "ماريانا" .. هل رأيتها؟"
قلتُ لك: "وهل رأيتِ " لوركا..... "

الفصل الثاني

"أكياس الطّحين ثقيلة يا "مارثا"، كيف تعودين بها كل تلك المسافة؟"
" ليست ثقيلة إلى هذا الحد. إنك تشبه امرأةً عجوزًا."
أضحك و أنا أترنّح من ثقل الطّحين ولا أنفك أُداعبُكِ: "حدثيني عن "لوركا".
"ماذا تريدني أن أقول.؟"
" لماذا هو فتى أحلامك .. لماذا "لوركا" بالتحديد. لقد أشاعوا أنّه مِثْليٌّ .. طبعًا هذا كلام غير مؤكّد بالنسبة لي .. ولكن .. كان من الممكن أن تختاري فتى أحلام لا يجلب لك العار.

"أنت لا تفهم شيئًا. هذا الـ" مِثْليُّ" كما يدّعون مات في سبيل حبيبته وحريته. أعدمه الثوّار القوميون انتقامًا من والده الإقطاعي، فقد كان تاجرًا ثريًا. لكنّ "لوركا" لم يكن مثل والده. كان فقيرًا معدمًا و أكثر منهم."

"مممم .. نعم .. ولقد كان مشهد إعدامه مشهدًا بطوليًا.

لم يكن يُخيف الثّوار أو يعاديهم، ولكنّه كان يلوم عليهم أنّهم طالبوا بحق الحريّة، وسلبوه منه. أتعرفين أنني أشبهه .. لقد ظللت قرابة العامين لا أعرف النطق. تأخرت في المشي حتى ظنّ أهلي أني مُعاق. لكني تمكنت من خطو أولى الخطوات و أنا في السّنة الرابعة. هل هذا الشبه كاف؟؟

" أنت تحمل الكثير من ملامحه أيضًا."

"لكنّه منفرد .. كان شاعرًا، كاتبًا مسرحيًا، عازفًا للبيانو .. ومطربًا يغنّي أشعاره وقصائده الشعبية. أتعلمين .. أنا أيضًا أحبّ البيانو. لكنّي لا أستطيع العزف. أشعر أن أصابعي ملتوية وتصيبني رعشة كلما حمّلت على ساعدي. لا أستطيع العزف يا "مارثا" فهذا شاق. شاق ومرهق جدًا لي ..

ولا الكتابة أيضًا. فقط قليلًا."

الفصل الثالث

كلّما نظرتُ إلى ساعتي وجدت عقاربها تشير في إتجاه باب بيتك.
هكذا قضيتُ الكثير من الوقت، أدورُ حول المنزل، لربما تخرجين لإحضار بعض قطع الخشب الذي شَذّبتُه لكِ بالأمس. أعرف أنّ المخزن لم يعد به الكثير.
لكنّ الوقت متأخر جدًا و أنا أنتظر في الخارج.

الجو دافئ أيضًا على غير العادة، وربما لن تحتاجين إلى خشبٍ الليلة ..
هل ستخرجين يا "مارثا"؟. لازلت أفكر في حديثي معك عن "لوركا" و"ماريانا" ..
"كيف أستطيع أن أحبك إذا لم أكن حرًا؟
"كيف أهَبُكِ قلبي إذا لم يكن ملكي؟ "
أفكر و أفكر في هذا الشّطر من القصيدة الأخيرة قبل أن تخترق الرصاصات صدر "لوركا". أحاول أن أطبقها الآن.
لكن هذا ليس صحيحًا ..
ربما ينطبق عليكِ أنتِ ..
كيف أحبّك و أنا أعرف أنكِ لن تكوني لي.
المشوار طويل جدًا، والأمرُ يكادُ يكونُ مستحيلًا ..
أنا أحبّك وأعرف ذلك جيدًا .. لكنّي لا أعرف كيف يصلك ذلك.
ولكي تكوني لي ينبغي أن تحبيني أولًا، ثم يكون لديكِ الرغبة في أن نكمل حياتنا سويًا. وهذا معناه أنك ستتركين خلفك كل شيء. وقبل ذلك ستراهنين عليّ وتضحين بـ "جوزفيلدا" العجوز، وبالراهب "ميناس" والدّير وخدمة العجائز في دار "ليرخيا". ماذا عن ابن خالتك "سيرخيو"؟
هل تحبيّنه ؟ هل ستتزوّجينه وتنجبين منه؟
كل تلك الأسئلة التي تعجُّ بها رأسي وأكادُ أُجَنّ. كيف أجعلك تحبّينني!
أيّام الدراسة أوشكت على الإنتهاء، وبقائي في (ملقا) لن يطول.
أمامي مهلة قصيرة كي أظفر بك. حسناً ..
يبدو أنّي سأبيت الليلة هنا .. خارج بيتك. أنا بانتظارك "مارثا" ..
هلّا خرجتِ ولو لدقائق، فقط.

الفصل الرابع

- "إسماعيل" ..!!!

أعرف ذلك الصّوت جيدًا .. صوت نسائي رقيق ينساب إلى مسامعي مثل صوت أصابع "ألبينيز" حين تداعب البيانو في كونشرتو أوبرالي شجيّ. أستطيع أن أميز نبرة هذا الصّوت من بين الآلاف ولا يمكن أن أتوه عنها أبدًا.. إنها "مارثا".

"مارثا".. أهو أنتِ؟ لقد ظننتُكِ بالداخل."

"ماذا تفعل هنا إلى هذا الوقت؟"

"بل ما الذي يجعلك خارج المنزل هذا الوقت؟

" لقد كنتُ أزور "مارغو" الحكيمة."

"ما بك؟". قلتُ والخوف يتجهّمُني.

" لستُ أنا. إنّها "جوزفيلدا" مريضة وتعاني من الحمى.

رحت أسألها على وصفة تهدأ من الحمى. إنها تسعُل مثل الديَكْة.

خشيت أن تكون مصابة بالكوليرا."

"ولِمَ لمْ تُرسلي في طلبي؟"

"لم أشأ أن أزعجك، أعرف أنك مرهق طوال الأسبوع .. تعود من الجامعة لتقف في دُكّان "ديميتري" -ذاك اليهودي اللئيم- آآخ .. أخبرني كيف تُطيقه؟

" لا بأس به بالنسبة ليهودي .. أنا أقف ساعات من الليل نظير بضعة ليراتٍ، أتقوَّتُ منها و أنفق على دراستي. اليهود ليسوا غرباء عنا. نعيش معهم منذ زمن بعيد وحتى الآن. لكنّهم موجودين بكثرة في (فلسطين) وبدأت أعدادهم تتزايد بشكل ملحوظ.

إنّهم يحظون بدعمٍ كبير من حكومة ملكة بريطانيا."

"تبًا .. غدًا سيحتالون عليكم، وقد تبيعون الأهرام وستقول "مارثا" قالت لي."

ضحكتُ و أنا أتفقد وجهك المضيء، تحت سنا القمر، وكأنّه مرآة. حدّقتِ بي للحظات ثم أشحتِ بوجهكِ عني في خجلٍ بالغ:

"هل ستقضي ليلتك هنا أم ماذا؟ .. آه .. بالمناسبة، شكرًا لأنك شَذَّبت الخشب، لم أكن أعرف أنك ستقطع كلّ هذه الكمية التي ستكفينا حتى حلول الربيع. لقد أرهقناك يوم عطلتك.

"لا تقولي هذا .. على الرّحب والسعة."

لحظات من الصّمت تلفُنا يا "مارثا"، أود أن تطول و تطول بلا نهاية.

فجأة صار الَّليلُ الكئيب مِنْحةَ بهجةٍ، ولحظات هناء لا أريد الإنتهاء منها.

نتحدّث في كل شيء، وعن كل شيء إلَّا عن حبي لك.

نسرد عن "لوركا"، و"سلفادور دالي"..

عن "أنطونيو ماتشادو"، و"بيدرو ساليناس" وأجدك هائمة في بحورهم. تحفظين مئات القصائد الأسبانية.

سألتُكِ: "كيف تحفظين كل تلك الأغاني؟" - فقلتِ ببراعة: "إنها تمثلني، لذلك أجد أنني أتحدثُ عن ذاتي فقط. ليس ثمة صعوبة أن يتكلّم الإنسان عن نفسه. أعرف كيف أعبّرُ جيدًا عن نفسي، وتلك القصائد أجدها في روحي تسكن، وتنتشر حرة طليقة كشعر الغجر."

إنك غجريّةٌ حسناءُ أيضًا، وعلى درجة من الثّقافة والرّوعة.

لا أستطيعُ أن أصف حُسنَكِ وبهائكِ. بشرتُكِ البيضاء المُشرَّبةِ بحُمرةِ الورود. أو شفتيكِ المُكتَنزتين كحبّتيّ توت. أو عينيكِ البنيتين اللتين تفضحان أندلسيتك الغابرة.

كم تمنيتُ الآن أن أولدُ هنا يا "مارثا"..
أتنصّلُ من عروبتي، ومصريّتي لأكون مورسيكيًا أندلسيًا، أو إسبانيًا خالصًا.
ماذا لو أنك مورسيكيةٌ أيضاً .. أكان من السهل عليّ أن أصارحك بكل ماأحمله في قلبي؟
ربما حينها، نعم، لأننا سنكون أبناء تربةٍ واحدة.

عُدتُ إلى بيتي يحملني قلبي، الذي يحملك.
ضاق وبكل ما فيه من سحاب لا يجد مطرًا يروي ظمأه.

النهاية

"سأخبرك سرًا. أتعرفين يا "مارثا" أنّي في مثل هذا اليوم من العام قبل الماضي أو الذي قبله -لا أذكر بالتحديد- كنتُ قد ارتكبت حماقةً كبيرةً جدًا، وظننت أن الله سوف يعاقبني بالموت فورًا كأدنى عقوبة. تلك الحماقة التي كانت بمثابة الجريمة.لكنّي على قيد الحياة الآن. ومنذ عامين ربما أو أكثر، ولازلتُ أتساءل متى سينزل الله بي العقاب؟
الجريمة توارت وهواجسي لم تتبدّد، وصرتُ بائسًا جدًا لأن العقاب قد تأخر."
"لكنك لا تعرف. الموتُ ليس عِقابًا يا سيدي. الحياة مع هذا الشعور هي العقاب. أنت تعاقب نفسك بيد الله.
ولكن أخبرني ماهي الجريمة التي إستحقت كل ذلك؟"
" لقد كذبتُ عليكِ يا "مارثا".
"... ؟؟؟"

ورحتُ أحكي لك عن خطيئتي، وبي خوفٌ شديد من أن تكرهينني وترحلين مع أول نداء لـ "جوزفيلدا"، وقد كان. إنها بداية النّهاية.
ونهاية قصّتنا التي لم تبدأ بعد. لماذا لا أصدّق أن المرأة لا يمكن أن تغفر لحبيبها الخطيئة الأولى. لكنّي لم أعتقد أنك تُكنّين لي المشاعر.
لا أعرف لماذا قرّرتُ أن أحكي لكِ عن ذلك السّر الذي خبَّأتُهُ في صدري و ابتلعتُه وهِلتُ عليه أطنانًا من الصمت.
ربما كنتُ بحاجة لأن أرميَ حجرًا، وأحرِّكُ تلك المياه الراكدة التي أراها في عينيكِ، وقلبك. أردت أن أكسر ذلك الجليد الذي يحجزُكِ عنّي.
لكنّي كنتُ كمن ألقى جالونًا من الزّيت في فُوَّهةِ بركانٍ، ثمّ وقف ينظر إلى الأبخرة المتصاعدة قبل أن تنفجر في وجهه. إكتسى وجهك الصبوح بحُمرة الغضب، ونفضتِ ثوبكِ سريعًا وقمت من على التلّة تركضين نحو البيت و أنا أرقبُكِ في ألم. نزل عليكِ الأمر كالصّاعقة.
لقد كان بعيدٌ تمامًا عن مُخيّلتِك، وعن كل توقعاتك، أن "إسماعيل" المسلم قد يكون هكذا. لكنه بكل الأحوال، ليس بعيدًا عن "إسماعيل" الشرقيّ.
الرجال يخونون يا "مارثا". "لوركا" أيضًا كان خائنًا ..
هذه هي الحقيقة التي لا تريدين تصديقها.
سيأتي يوم وتثبتُ لك الأيام أن ما فعلتُه كان شيئًا عاديًا.
على الأقل أنا أعترف بذنبي و أنتظرُ عقابي. لكن العقاب الأقسى أن يكون رحيلك عني على هذا النحو. لا أعرف على أي شيء سأندم أكثر..
على صدقي معك الذي أفقَدَنيكِ؟ أم على خطيئتي التي لم أُكفّر عنها حتى الآن.
ها أنا أرحل يا "مارثا" قبل موعدي.
الأيام التي ظننتها قليلة ولن تكفيني لأظفر بك، لم أحتج لأن أكملها معك.
سبعةُ أيامٍ و أنت لا تخرجين، وترفضين مقابلتي، والجميع لا يعرف السّبب.
يتساءلون .. "جوزفيلدا" تقول أنّك مريضة وترفضين الطّعام.

"ديميتري" هو الآخر، يسألني عنك، يقول أنه لم يرك منذ الأسبوع المُنصِرِم
حين اشتريتِ منه الخردل والزّيت وأعواد الثقاب.
لقد تركتُه يا "مارثا"، وجمعت أشيائي وقطعت تذكرة قطار إلى (بلنسية)
وسأبحر منها إلى قبرص ثم أعود إلى السّويس. ربما لا تودين رؤيتي ..
أنتِ محقة يا "مارثا" .. فأنا نفسي لا أُطيقُني.
لا أطيق خطيئتي وحمقي وغضبك مني.
ولكني أقف الآن مكبّلًا يا "مارثا" .. فاتني موعدُ القطار، تخلفتُ عن رحلتي،
وفقدتُ حقيبتي ولم أحرّك ساكنًا، كأنني أنتظرُكِ.
أرى شبحًا من بعيد يُلوّحُ لي ..
يبدو لي كظلّ فتاةٍ إسبانيةٍ في أوائل العشرينيات، ترتدي الغوايسكا الحمراء،
تضعُ قُرطًا لؤلؤيًّا، وتلفُّ حول رأسها المانتور الأبيض.
إنها الألوان ذاتها، التي تحبينها يا "مارثا" ..
تقترب رويدًا رويدًا ..
أُمعنُ النظر أكثر،
أراقب الخطوات التي تشبه مشيتك.
تقترب أكثر..
أعاود النظر وهي تقترب ..

"مارثا" ...

تمت

فرصة ثانية

(المشهد الأول)

ما إن أحسّ بلسعة البرد تلفحُ وجهه بأذنيه حتى ارتخت أوصاله وبدأت في الخمول. إستلقى على المقعد الخشبي المواجه لشاطئ النّيل بالمنيل.

قطع كل تلك المسافة من القاهرة الجديدة إلى المنيل فقط ليحظى بهذه الجلسة وحيدًا يفكر، ويحاول أن يستقرّ على مرسى.

أسند ظهره للخلف، ثم وضع يديه في جيوبه وأغمض عينيه لبرهة.

لم يستمر ذلك الوضع كثيرًا، وشعر بالنّعاس.

نام لدقائق معدودة إلى أن أيقظه صوت هاتفه المحمول:

- **ألو محمود ...**
- **أيوة يا نورا إزيك ..**
- **الحمد لله بخير.. إنت عامل إيه؟؟**
- **أنا تمام .. ماشي الحال.**
- **الحمد لله، إنت فين؟**
- **بره البيت .. ليه؟ .. فيه حاجة؟**

(Salma is calling ... "Waiting Call")

- **إنت جاي الشغل بكرة إن شاء الله**
- **أيوة إن شاء الله بس ليه بتسألي؟**

(Salma is calling ... "Waiting Call")

- **لا أصل ملقيتكش النّهاردة على الفيس بعد الصّلاة زي ما إنت متعود يوم الجمعة .. فقلت أسأل عليك وأعرف أخبارك.**

- فيكي الخير والله .. لا أنا دخلت بس كنت أوفلاين

(Salma is calling ... "Waiting Call")

  - طيب ... يعني هشوفك بكرة في الشغل إن شاء الله؟

- أيوة بإذن الله

(Salma is calling ... "Waiting Call")

  - ماشي سلام

- سلام

(Salma is calling ... "Answer")

- ألو...

  - ألو ،، كنت بتكلم مين ؟؟ *(صوت حزين)*

- هههههه ،، إزّيك يا سلمى

  - الحمد لله كويسة ...كنت بتكلم مين؟ ..

كان المشاعر مختلفة..

هو.. غادر المكان سعيدًا، رغم أن المكالمة لم تنتهِ نهاية سعيدة..

وهي.. كانت تشعر بغيظ وضيق شديدين، حالا دون نومها، وظلّت تعاني الأرق حتى الصّباح ..

هو.. يعلم الآن تمام العلم أنها تعشقه وتغار عليه غيرة الدببة على صغارها..

وهي .. لم تزدها هذه الواقعة إلا حرصًا على الظّفر به والإستحواذ على قلبه.

في الصّباح، استجمع أوراقه كعادته ووضعها في حقيبته.

إنطلق "محمود" نحو عمله بعد أن حَظي بقسط من النوم الهادىء الذي أراد أو كما كان يتمنّى بالتحديد.

إستيقظت "سلمى" مبكرًا اليوم على غير العادة، أو بالأحرى قامت من مخدعها لأنها لم تذق طعم النوم، ولم يغمض لها جفن منذ الأمس.

لا تزال تفكر في تلك الـ "نورا" التي شعرت فجأة أنها تنافسها. وبعد قرابة الثّلاث ساعات، كانت تستقلّ الباص في طريقها إلى الجامعة. كانت تحبّ دراستها، فرغم حصولها على الدّرجات النهائية في الفيزياء والرياضيات، وهو ما ينم عن عقل مرتب، إلا أنها التحقت بكلية الفنون الجميلة، في تهوى الرّسم منذ نعومة أظفارها.

(المشهد الثاني)

- سلمى عرفتي أن مصطفى رجع من يومين؟
  - عارفة.
- طيب مش واجب تروحي تسلمي عليه و بالمرة تزوري خالتك اللي كلّ ما أروح تسألني عنك؟
  - لا مش هقدر أروح
- أنتِ خايفة تروحي؟
  - وهخاف من إيه؟
- إنّك تضعفي لما تشوفيه
  - إيه الكلام اللي بتقوليه ده، أنا خلاص نسيته
- مش عارفة ليه مش مِريَّحاني
  - اسكتي يا هدى، وبعدين إنتي عارفة إني أنا ومحمود فرحنا بعد الامتحانات. يبقى ملوش لازمة الكلام ده.
- معاكي حق. بس أنا لفت انتباهي أنّ خالتي وهي بتكلم ماما في التليفون - وكنتي خارجة من أوضتك ور ايحة المطبخ- لما سمعتي ماما بتقولها رجع إمتى فجأة لقيتك وقفتي و اتسمرتي ف مكانك..
  لكن خلاص اللي انتي شايفاه.
  - مصطفى أساسًا مكنش عاوزني من البداية. ريّحي دماغك.

- مصطفى سافر ليه تفتكري؟ مش عشان بابا قاله ظروفك دي متأهلكش إنك تفتح بيت دلوقتي؟
  وهو مش قالك كلهم سنتين و هرجع؟؟
  - أنا قلتله متسافرش و خليك هنا هو اللي مسمعش كلامي وبعدين أنا قلتلك هو مكنش عاوزني من الأول.
- سلمى بلاش تظلميه. أنا عارفة إنك بتحبيه ..
  ولما غاب عنك وظهر محمود في حياتك اتعلقتي بيه
  - أنا بحب محمود دلوقتي
- أنتي بتحبي محمود بس منسيتيش مصطفى.
  - إيه التخاريف اللي في دماغك دي؟
- أنا مش بخرّف. إنتي عارفة إن كلامي صح، ولو مش صح مكنتيش طلبتي من محمود إنه يأجل الفرح لحد ما يرجع من البعثة.

رغم انه كان مُصِر إنكم تكتبوا الكتاب وبعدها يسافر ويرجع بعد ست شهور تدخلوا.

- وهو أنا أفضل ليه ست شهور مكتوب كتابي مع إيقاف التنفيذ؟؟؟ لما يرجع بقى براحته نبقى نتجوز.

(المشهد الثالث)

- إنتي ليه عملتي كده
  - أنا معملتش حاجة
- يعني تخبي عني إنك إنتي و ابن خالتك كان فيه بينكم قصة حب وتقوليلي معملتش حاجة.

- أنا كنت خايفة
- خايفة من إيه ؟
- خايفة أخسرك
- وتفتكري لما تخبي عني كده مش هتخسريني
- والله غصب عني ..

أنا كل ما كنت بفكر إنك لما تعرف إنه رجع كمان إيه اللي ممكن تعمله كنت بموت من الخوف والرعب .. أنا مش عاوزاك تزعل مني .. محمود أنا آسفة إني خبيت عنك من الأول .. أنا عارفة إني غلطت لكن والله أنا فعلا بحبك أنت .. ورجوع مصطفى مغيرش حاجة في مشاعري ناحيتك.

- خلاص يا سلمى .. مفيش داعي تحلفي
- يعني إنت مصدقني

(المشهد الرابع)

- مش عيب إن الواحدة تفكر في مصلحتها شوية وتحكم عقلها طالما هتقدر تتحكم في مشاعرها.

- عندك حق
- إوعي تفتكري إن مصطفى لما رجع أثّر فيا رجوعه. أنا كنت بس خايفة من حاجتين..

أول حاجة إنه يفتكرني كنت بتسلى بيه لأني ارتبطت بمحمود .. والتانية كنت خايفة إن محمود يفتكر إني مش بحبه .. أينعم أنا مكنتش بحبه في الأول وكان تعارف على الفيس، و شوية استلطفته بصراحة استفزني إن عنده صاحبات كتير..

فقلت أقرّب منه وأعرف شخصيته وليه كل دول عنده..

بس بصراحة .. عندهم حق *(ابتسامة)*

- يازيدي يا زيدي *(ضحكة)*
  - بس يا هدى فيه إيه *(ابتسامة)*
- المهم يا ستي.. ألف مبروك وربنا يتمملكم بخير..

وأخلص منك بقى علشان أشوف أنا حالي

(تعالت الضحكات ف الغرفة)

(المشهد الخامس والأخير)

محمود ممسكًا بيد عروسه سلمى وسط سيول من الزغاريد و الورود و الحلوى. يداعبها قائلًا:

- ياااه ..يوم حلو أوي .. يارب متحرمنيش ابدًا من الفرحة دي ياااااااااه.. أووووب ..

أآآآآخ ..

(لكمة يسارية غير مرئية من "سلمى" و قرصة يمينية جعلت وجهه يحمر.. وهي تردد ..ماشي .. ابقى شوفها تاني..)

بالرفاء والبنين

تمت

الفهرس

الإهداء ٢

على فراش الحصبة ٣

بِدون ٥

سيلا ٦

الطريد ٩
الحادثة ١١
السجن ١٣
أحمد قلبي ١٤
ضحية حرب ١٥
لم يبق أحد ١٦
الأستاذة صفاء ١٧
الشيطان ١٨
الماكرة ٢٠
مالك ٢١
نور ٢٨
مريض سكر ٣١
كارلايل وساعي البريد ٥٨
مالك ٢١
حالة وفاة ٦٧
أجمل من الوردة ٨١
ياسمين ٢١
مارثا ٩٤
فرصة ثانية ١٠٣

***

حقوق الطبع و النشر محفوظة

ببلومانيا
للنشر والتوزيع